النشر لمن يستحق

في ثنية ضفيرة



سماح المزين

كيان كورد
دار ليلى

سماح ضيف الله المزين

"في ثنية ضفيرة"

كيان كورب للنشر والتوزيع
(دار ليلى)

الكتاب:
في ثنية ضفيرة
المؤلف:
سماح ضيف الله المزين
الغلاف:
سعاد المالكي
الإخراج الفني:
حسام سليمان
التدقيق اللغوي:
محمد عبد الغفار
★★★
إدارة التوزيع:
عبد الله شلبي
الإشراف العام:
محمد سامي
★★★



رقم الإيداع: 13336/2012

©جميع الحقوق محفوظة.. وأي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع -دون موافقة كتابية- يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

الترقيم الدولي: 978-977-5238-44-3

المهندسين-23 شارع السودان-تقاطع مصدق-الدور الرابع-مكتب 11
هاتف: 33370042 (02) (002) - 23885295 (012) (002)
البريد الإلكتروني: mail@darlila.com الموقع الرسمي: www.darlila.com

سماح ضيف الله المزين

"في ثنية ضفيرة"

كيان كورب للنشر والتوزيع
دار ليلى

مقدمة الناشر

كانت دار ليلى (كيان كورب) منذ ما يزيد عن 4 سنوات، قد أطلقت مشروعها (النشر للجميع.. ولمن يستحق) والذي نال استحسان الكثير من المواهب وقتها، والتي أصبح البعض منها كتابًا محترفين بعد ذلك، أو توجهوا لمشروعات ثقافية متنوعة، لمعوا من خلالها..

ومع ازدياد كم الأعمال التي يبدعها الشباب – خاصة بعد ثورة يناير العظيمة– وفي ظل الظروف الحالية التي تمر بها مصر، أصبح سوق النشر والتوزيع في حالة ضعيفة، خاصة مع استمرار ازدياد أسعار الخامات، وإحجام كثير من دور النشر على ممارسة نشاطها بتوسع، وضعف القدرة الشرائية للقارئ المصري، كذلك صارت عملية النشر محفوفة بالمخاطر، التي تخيف طرفيها – الناشر والقارئ – على حد سواء.. وكانت الدار نفسها من الدور التي تأثرت – وبشدة– اقتصاديا، ومع اضطرارها لإغلاق باب تقديم الأعمال، فكرنا في حل بديل، هو النشر لمن يستحق.. وتطورت الفكرة كثيرًا، إيمانًا من دار ليلى (كيان كورب) بأهمية الحركة الثقافية، وحرصًا منها على استمرارها في دورها، وإيمانًا منها – كما عهدتموها– بالشباب الموهوب..

لذا فقد قررت الدار إحياء مشروعها "النشر لمن يستحق" لفترة محدودة هذا العام، وعلى مراحل، وبشكل استثنائي، لعل ذلك يحرك المياه الراكدة.. آملين أن يحقق ذلك مجموعة نتائجها، على رأسها:

- توفير الفرصة للراغبين في النشر أن ينشروا أعمالهم، وأيضًا عبر دار نشر لها اسمها ولله الحمد، مع كبار الكتاب.

- تحقيق الأمان الاقتصادي للكاتب، حيث يضمن عودة ما دفعه بعد عام واحد، مع هامش ربح خفيف، إضافة للغرض الأسمى، وهو أن يرى أعماله منشورة.

- تحقيق المصداقية والوضوح بين الناشر والكاتب، عبر شكل وبنود العقد الذي يعتمد على حماية الملكية الفكرية، كما هي عادة عقود دار ليلى.

- توفير عناوين جديدة ذات قيمة للسوق المصري، الأمر الذي يخدم العملية الثقافية.

ندعو المولى عز وجل أن يكلل مجهوداتنا بالنجاح، وأن ينال مشروعنا رضاكم، وكلنا ثقة بأن كثير من الأسماء التي تنشر من خلال هذا المشروع، ستصبح – مثل سابقيها– بإذن الله من اللامعين في مجالات ثقافية عدة.

الناشر

لأنّ الدهشة التي تليق بأنثى الغرور . . لم تخلق بعد !

حلفتُ أن أؤثث قصر عاج يليق بانتظارها المهيب

صمتا وجلالا . .

ولم أجرؤ أن أهدي!

سماح



تلك ليست بمقدّمة أبداً

تلك هي شلالاتُ الدمّ المندفقِ أملا مرة، وألما مراتٍ

ووشاياتُ قلبٍ مزدحمٍ بالأسئلة

خطراتٌ وحكاياتٌ مثبتة كدبابيس الزينة في تعريجات

ضفيرة

(تاء)

شبه تائهة!



مساحات مفتوحة

شيءٌ ما..

يملؤني بالنشوة حين أبعثُ بطاقة دعوة لأقلامٍ تنتمي لأسماء حـرة إلا من التـشكل حـسبما أرادت؛ لأنـاس لا يـشبهون إلا أنفـسهم، بيـدَ أنّ أجسادهم تشدهم أبداً إلى شكل الكادحين، وأرواحهم إلى السماء؛ حيـث لا شيء خبيث، لا شيء ضنين. لا شيء خادع، ولا شيء ملوث!

تنْهَدُّ تلك البطاقة على مدادهم، تستفزَ فيهم مشاعر تخبـو خلـف ستائر شفّافة، ليهربوا بعيداً عن أجواء الحياة المشحونة بالضنى، وينتبـذ واحدهم لنفسه مكاناً هادئاً يسيغ فيه عزلـة هانئـة علـى شـفة الحـروفِ، فينثرَ إحساساً كاللوحة الناطقة جمالاً وألقاً.

افتقارٌ دائم، ونهم شديدٌ لكلّ لقمة سـائغة يطرحهـا أحـدهم علـى مائدة الحروف، هكذا ألمحُ متلقي الدعوة، وهكذا يثيرني لأستفزَّ فيـه كـل

شيءٍ مِرارا دونما أي وجل أو حياء، لينطرح كل ذاتِ ملائكية بين يدي بوجهِ ويغرق المائدة نوراً، يشد الكون إليه، هكذا أراني ملزمة بهدهدة قلبه ليهدأ فيحلم، ثم بمراوغة حلمه ليمجَّ الفاسد ويعدّل ما قد صلُح، فأراه في مواسم نضوج العطر، وجني النور.

المبدعون هم أجمل ما يمكن أن يمرَّ أبداً على هذه البسيطة، لا أجدهم إلا أكثر البشرِ قراءة للحياة، واستصدارا لوجه الغدِ، بينهم وبين القمم الشهيرة أعوام، وربما قرون، لكنما لا يزالون يستنسخون وجوها عرفها التاريخ، ومرت عليه سابقاً، فيستصلحون بعض ملامح تلك الوجوه، ويلبسون ثيابها ليقولوا: إنَّ الكابوسَ لم ينتهِ بعد يا حضارة المادة البائدة، فنحن رواد المعنى، وسدنة الروح.

كل شيءٍ عادي إلا أن تجد أحدهم يقف كالسدّ في وجه الكابوس الحقيقي الذي يُدعى التاريخ، لينقش اليومَ اسمه بأبعاد لم يعرفها قبله أحد، لا يزال يصرخ عوزاً وافتقاراً لكلّ عقارٍ مَعْرِفِي يُصبّ جاماً في سوق بائدة، لا يفهم حقيقته، أو يشعر فائدته إلا صاحب الصدى الخافت: أنا بحاجة ملحة إلى أن أعرف، ثم أعرف، ثم أعرف، أجدني دوما أقطعُ فيافي الإنتاج بحثاً عن كسرة أدب، أو بعض ثقافة، ولعلي أسمعُ همسهُ وسط ثيابه صراخاً يكسر كل حواجز الزمن، فيصلني متهدجاً تعباً.

أعشقُ بدوري تلك السلسلة لأطرح على مرأى الكون ومسمعهِ جلّ ما أملكُ، مساحاتٍ مفتوحة أمام متلقي الدعوات، لأسندَ وجعَ حروفه، وألملم منثورَ إحساسه، ونصنع معا عالمنا الخاص في مساحاتنا اللامتناهية.

وبالجرأة إياها التي تتعرى بها أشجار الخريفِ من أوراقها على مرأى العالم ومسمعه.. كنت أدعو الأقلامَ لتتعرى في حضرة ملائكية الفكرة، وسمو البوح.. ساكبة مداد شرايينها ليبقى نزفاً حاضراً في صدرِ الأمجاد[1].

الخميس || 17 ديسمبر 2009م

[1] "أمجاد" كان اسم أول منتدى أدبي صعدت على منبره وحظيتُ فيه بأول تصفيقة.

عرسٌ.. من حروفٍ منتفضة

كعادتها الشنيعة!

تقبضُ كفَّها إلى صدرها.. تضمّهُ لدرجة تخلّفُ علامة على وجهِ القلبِ.. وتتركُ أثرا في الصدرِ أو أبعد.

بخيلة هي إلا في قتل الفرح.. ففيه تَشْعُرُ أنها كريمة بل مسرفة الكرم، كأني بها تعرفُ ما بيدهِ رسمُ بسمة.. فتحيلهُ مِزقا بعدَ اكتمالِ صحة.. وتفردهُ بنوباتِ اهتمامٍ.. لكنها ذاتِ هدفٍ مختلف.. تصادقُه وتمنحه عهدا بعدَ عهدٍ.. وهي صادقة وفية بعهدها.. إلا أننا في كلّ مرة نزدادُ انتحاءً وبعدا عن الصواب.

في الوقتِ إياه الذي ترقصُ هي فيه في محاريبِ قلوبنا.. رقصا يوهمنا بأننا لا نزالُ أحياء.. نكذبُ ونصدقُ الكذبة قبلَ الجميع.. نوهم أنفسنا أننا لا نزالُ نتنفسُ.. بينا تُمِدنا بنَفَسٍ مسمومٍ.

يرى الأحياءُ حولنا أشباحا تدور وتدور بلا هدفٍ محدد.. يشهقُ فلانٌ.. وترتعشُ ابنة العمدة.. فيأمرُ الأخير وهو صاحبُ العقدِ والحلّ.. يأمرُ قراصنتهُ ليضموا أشباحنا في قفصٍ هلامي، ويقدموا لنا من بين شقوقهِ بقايا مائدة العمدة.. نتصارخ ونتبارى من يسبقُ ليحوز الكِسرة الأكبر.. ونحن نتشبعُ اعتقادا أن الأكبرَ هي الموتُ الأقرب.

أصِفُنا أغبياء.. وأصْدُقُ.. بل أتحدى إن رضي أن يبارزنا الغباء حمار جحا!

هي العقربُ مسمومة النَّفَسِ والنبضة.. مكشوفة العورة والوجه.. تعودنا منها تقرض كلّ أطراف الصفحة البيضاء لتهددنا بصريحِ النفثِ المسمومِ: أنْ يا هؤلاء!.. إنّ هناكَ ما يرقبُ هلاككم.. ويتحين فرصة موتكم.. فلا تُطيلوا لحظات السعادة أو توسّعوا الابتسامة!

ليسَ غريبا.. أو جديدا منها.. فهي كانت ولا تزال وستظلُّ إياها.. بريئة الوجهِ المرسوم، صاحبة الابتسامة متقنة الصنع.. والكلمة فائقة الحبك.. بل إياها ربّة الجمال والهدوءِ والرقة والحلم.. فما إن تقرأ في عيني أحدهم بريقَ انتصارٍ إلا أودت بهِ لهاوية الهلاك.. أو تلمح بوجههِ ألقا إلا أحالت ألقهُ ألما وشكوى.. كل ذلكَ وهو في منتهى الانسجام!

كيف لا!

وهي قد فرشت حريرَ مكرها ثوبا ينطقُ إغـراء يـشدُّ إليـه كـلّ مـن يقتربـون مـن المـوتِ علـى أطـراف دوامـة الـشوك.. وهـم.. يـا للمـصيبة يتصايحون بين يديها شهوة وحاجة!

وفي آخرِ المطافِ تهديهم شمعة.. احتفالا بعيـدِها اليـومي وإن هـم قلّبوا الشمعة بين يدي عقولهم وجدوا بقاعِهَا بقعة دمٍ تشرحُ فائتَ السنين صراحة أمام عيونهم.. على الرغم من ذلكَ يشعلونها.. ومع كل قطرة ذائبة منها تنسكبُ روحٌ طالها الظلم.. وتُطلَـقُ رصاصـة ذميمـة الخِلقـة، ذميمـة الطبعِ والصنعِ، لكنها مطلية بدمٍ طاهرِ الريحِ زاهي اللونِ، فتلكَ اخترقـت جسدَ العزيز.. وبعدَ الرصاصة يتوالى عرضُ الصور.. وفي عمقِ الظلامِ يحالُ مخزنُ الجرذان معرضا لقيِّمِ إنجازات هتلر.. المخزن الذي حُبسَ فيـه كـلَّ معتزٍّ بإنسانيته.. يحالُ بين عودِ ثقابٍ وشمعة.. إلى شاشة كـبيرة تعـرضُ صورَ المأساة على مدار الأربع وعشرين هزيمة.

تطلعُ شمسُ النـصرِ مكـسوفة المـدّ الـشعاعي لكنّهـا تبقـى متفائلـة بمكان لا يزالُ يحافظُ عليه عشاقها ليُسْكِنُوها إياه يومَ تعود.. لكنَّها تُذهلُ

يومَ أن ترى تلكَ الشمعة اللعينة اعتلت عرش الشمس.. وسجدَ بين يـديها
قومٌ بقاؤهم في الأرض حدثٌ مُفتعل.. تديرُ ظهرها بكلّ هدوءٍ.. فهي تحفظُ
تفاصيلَ القصة.. وتعود إلى حيثُ كانت في حضنِ طفلٍ بيده حجرٌ نقشَ على
بسطته حروفَ القلاقل.. ولثَّم وجهه بخرقة كيلا تقرأ اللحظة ملامحه.

الخميس || 19 مارس 2009م

كم يشبهكِ البياض

أغنية لبيضاء الفرح (يقين[2])

لستِ آلهة..

فلم آتِ لأحقق أحلام الأنامل العطشى للثم الأنامل!

ولم آتِ لأطبق كفي وأقرأ كتاب الحب بين يديكِ!

لستِ قديسة..

لأشعل شموعي وأكتبَ تحت كلٍّ منها أمنية يحفظها الشمع «المنصهر»

أو لأشعلَ قلبي متاهة بعد أخرى، وأسكب في الدربِ دمعي «المنقهر»..

[2] "يقين سامر حصارمة" توأم الروح/ صديقة من رام الله (أسيرة محررة) أبعدت إلى غزة وتزوجت فيها.

لستِ أسطورة..

لأرهقَ عقلي حتى أغوصَ والناس في مجاهل المستقبل لأثبت حقيقتها الوهمية!

أو أرهق عقلي في التفكير بمسألة تحويلها لواقع أحياه ويراه الجميع!

لستِ ملاكا..

لأرتحل إليكِ فقط وقت السحر لأن هذه الدقائق المغمورة بالنقاء هي مساحة مولدك!

ولأرتحل إليكِ فقط إلى ملكوت الفضاء وهما كان أم وهما.. لأن مطرحها الوهم!

لكنني فعلتُ..

بنيتُ المسرح / لا أذكر عدد زواياه – إن كان هناك زوايا – ولستُ أذكر حتى كم لوحة رسمت، وكم شخص استحضرتُ، وكم مشهدٍ حضَّرت.. وكم أغنية ألَّفت، وكم... وكم.. وكم!!

لا أذكر شيئاً سوى الساعات السبع اللاتي احتضنَّ جسدي الهزيل وعيني الذابلتين!

أذكر تفاصيلها جيداً

حين جلستُ إلى نافذة الروح.. أنفض حسَّ القلبِ.. وألملم ما تبعثر من دقائق فقد!

أذكر أيضا.. أن لا خيال إلاك غطى على الأخيلة! ولا وجه إلاكِ مسحَ ذاكرة الوجوه!

هذا اليوم!

ربما لم أكلف نفسي شراء المزيد من الحلوى.. لكنني تعمدت جلبَ معزوفة خاصة.. بها من المشاعر سيل تعجز الحروف عن حمله.. معزوفة لن تعزف إلا اليوم.. ثم ستتلاشى كما تكونت!

حلوى العام الفائت.. لا تزال ينبض بها فمي حياة، وروحي أملا!

وحفل العام قبل الفائت.. لا يزال يحيطني ويملؤني زحمة مشاعر.. ولا تزال مهرجانات الهدايا الخاصة ترتكب الغناء بفحشٍ ظاهر!

لستُ أدري ماذا تريدُ مني الأشياء!

في هذا اليوم خاصة.. حين تدق الساعة معلنة قدوم هذا اليوم

الرابع والعشرين من أبريل!

أذكر.. لا أزال أذكر كيف أنني حاولت كثيراً أن أستبعد الحزن في مثل تلك اللحظات.. غير أنني تغلبني فكرة أن الحزن هو باطن كل فرحة، وغلاف كل ابتسامة.. لكن!

سعيدة أنا.. لأنك قضيتِ معي يوم عيد فات!

كل عام وأنتِ كلُّهنّ.. يا طيبة!

الأحد || 24 أبريل 2011م

سأحتفل في «لا» حضرتك

مرّ الكثير،

لم أتحسس زجاج نوافذك الندي بعد،

وها إن دمعي يختلطُ بالندى..

لم تشرق عيناكِ بعد، وها إنني أنتظر..

ترى هل فاتّني القطارُ، وتعددت توقيتي المسافات، قطعتُ أرض الشوق بحثا عنكِ، أطلّي الآن حالا. توسدي أرض الحضور، وتقلدي شرفاتِ الندى، واسردي على كائنات عالمي قصة التابوت والفتاة المخملية.

اقرئي الفصل الأول من كتاب الورد، وألقي التلاوات كاملة بين يدي اللحظة المتوقفة بين يدي الصوت المتهدج من تعب النداء!

هل بدأت لديكِ الحكاياتُ أم ليس بعد؟

انتهى إليكِ السعدُ أم ليس بعد؟

إنه يومُ العيدِ وكلهم هنا (موسيقايَ، ورودي، حلوى السُّكَّر، وجنائن الغزل...) كلهم هنا إلاكِ!

إلا أنتِ..

يا زمرّدة خيالي الـ«لا رحب» حين تكونين بعيدة!

إلا أنتِ..

يا ملهمتي الخاصة جداً في ساعات انبعاث الأنفاس!

إلا أنتِ..

يا زنبقية الرّقة التي تفرشُ العمرَ انتشاءً!

إلا أنتِ..

يا نَيْسان الكون تبعثُ فيَّ روحَ الحبِّ وراحهُ!

تضيعُ المفردات وأنا أسترق النظر إلى نافذتك

أحدّق في صورتكِ، عينيكِ العميقتين، أشيائك المتناثرة، بقايا قطع الحلوى!

توجعني الأغبرة التي عششت في زوايا النافذة الوحيدة بيننا،

وتلسعني أذرع العناكب التي بدأت تبني بيوتها هناك!

تثور بوجهي أبخرة غليان قهوتك الأخيرة ولا أنفضها، أستنشق «حتى غيبتكِ التي طالت» أستنشقها باستمتاعٍ أسطوريّ.

لقد أحببتكِ كما لم تحب إحداهنَّ رفيقة دربها

وعلى الرغم من قسوة غيابك «المقصود» إلا أنني أقف على عتبة اليوم أرددُ تراتيل أمنياتٍ لا أحفظ منها إلا اسمكِ الذي لا يغيب، أهبُ اليومَ كلهُ لكِ.. احتفاءً بكِ.. وحبا كبيرا،

لا أمنية محددة لديّ.. ولست أعلم شيئاً عن أمنياتك!

ماذا عن تلاعب الأمواج بكِ، ماذا عن الدمعات في آخر يومٍ..

أتذكرين ذاك اليوم؟

لم أركِ أبداً تبكين كما يومها!

أ لأنه كان آخرَ يومٍ؟ أم أكبر قطعة ثلج ابتلعتها فغيبتني عن الوعي طويلاً!

لقد كنتِ معي في كل ارتعاشات قلمي، في كل انتفاضات الروح، في كل تأرجحٍ مؤلمٍ.. بين العلو والهبوط / بين التقدم والتراجع، في كل مد للهوى أو جزر!

لقد كنتِ ولا تزالين.. وكنتُ ولا أزال

لستُ أدري لم تخونني الحروف؟

هل لأن الدمعَ مثلا يسيل من عيني فلم أعد أرى ما أكتب؟!

تجتمعُ الحروف لتتفق مع غيبتك ضدي، فلا أستطيعُ أن أعبر، وهل يحتاج الإحساس لرؤية قد يحجبها الدمع؟

كنت أتمنى أن أكتبَ لكِ هذه الحروف في حضرتك!

على الأقل.. لتمسحي الدمع بكف راحتك.. بأنملتك أو بنظرة رضى، أو حتى بابتسامة نصف عارية!

لستُ أدري لمَ أنجح في الكتابة للجميع إلا أنتِ؟!

أ لأنكِ مثلاً..

تقرَئين بوح الروحِ دون انسكاب؟

أم لأنك..

أنتِ من تسكبين البوح من منابعه؟

أم أنك البوح والبَّوحُ يأبى أن يبارز نفسه لأن النتيجة فشل أو فشل!

أم ماذا! أهي حقيقة عجز!

أقف بين يدي لحظاتك الأولى في عامك الجديد، أدلق كل ما لدي من حبٍّ في كأسك، وكم تمنيت أن نشربه معا..

أن أمنحكِ اسما لهذا العامِ على الأقل، لتكوني أبداً

نزف الروح، وضمادها

بوح الروحِ، وسقاءها

صوت الروحِ، ونداءها

وطنَ الروحِ، وانتماءها

لستُ اليومَ هنا إلا لأتقي (بحرفي الركيك) جلبة الغثاء القادم

لستُ اليومَ هنا إلا لأنكِ تستحقين!

نسرينة لروحكِ نسرين[3]

الثلاثاء || 28 ديسمبر 2010م

---

[3] الصديقة اللصيقة وشبيهة الروح: نسرين ثابت.

أنثى استثنائية

وربما تكون الأخيرة كما كانت الأولى، تلكَ اللحظة التي ترسُمُ فيها الياسمينة خطوطَ قلبها على الورقِ، وترصُّ بتلاتها توازيا معَ حلمها ليناغياها معَ كلّ طارقٍ لقلبها، ويأخذاها حيثُ تريد، لا حيثُ تريدُ منها الدنيا.

للحظة تتخيلُ تلكَ الياسمينة أنها على مفترقٍ يأخذها إلى عالمٍ لا تؤمنُ بأكثرِ تفاصيلهِ، ولا تُغريها معظمُ ملامحهِ، فتقفُ والدنيا على شفة عداء، تُصارعها والأخرى تبادلها الصراعَ سلبَ أمنياتٍ، لم تعلم تلك البشعة أنّ الياسمينة ليستْ مجرد امرأة بل إنها طوفان تحركه لفتة مزاجية، تبددهُ لحظة دفءٍ، وتُجمّعهُ فُتَاتة حظّ، ليست جسدا بل أرقى وأبقى، هي أنثى تغارُ منها الدنيا، تراها دنيا أجملَ منها بل وأفضل، تُنازعها الحبَّ والميلَ، وتسلبُها السبقَ إلى القلوبِ، والخلود فيها، فبدلَ

أن يتبعَ رجلٌ خطوَ الدنيا، تـراه ارتمـى متهالكـاً بـين بـتلاتِ ياسمينـة، يذوبُ في ضمة طالباً إياها مزيدَ احتراقٍ لذيذٍ، تائهاً يتهاوى سائلاً: أنْ يـا ياسمينة عطراً أقل، فما عُدْتُ أحتمل!

ياسمينـة استثنائية، بل أنثى ما لها ثانيـة!

متفـرّدة الإحــساس، متفـرّدة المـزاج، متفـردة العطـاء، متفـرّدة الجنون، مدُّها مذهلٌ رهيبٌ غريب، وجزرُهـا عـذابٌ حـارقٌ، إن سـحبت بساطَ وُريقاتها حرّكتْ دنيا بأكملها، وإن أرسلت طرفها فمَطرٌ من جمال، وبحورٌ من بهاء، وعالمٌ لا نهاياتَ للذتهِ، مرة تثورُ بركان لهفة، وأخرى تجدُ نفسها امرأة بها ما بها من حاجـة، ومـرة تتحـسسُ بداخلـها طفلـة مشاكسة ترقدُ في سُباتٍ وبراءة، ورابعة تلمحُ غيمة معبأة بمـا لم يكـنْ مـن قبل، تهطلُ عطاءً لا يتوقفُ، وكثيرا جداً تـؤمنُ أنهـا دنيـا كاملـة، فيهـا قسوة ليلِ الشتاءِ الطويل وجرأته في تجميدِ العالم، فيها الخريفُ العاري، تنقصهُ الكسوة للأبدِ، فيها لـسعاتُ الـشمس وانطلاقتُهـا الـصيفية، فيهـا دفءُ الربيـع وألوانـهُ وشـقاوَتُه، فيهـا مـن الـشمسِ الكـثير، ومـن القمـر جاذبيتهُ، فيها مـن السماءِ اتـساعُها، ومـنَ الأرض سـرُّها، لحظـة تكـبُرُ فتكون أم الورداتِ، وأخرى تـرى نفسها بـذرتـهُنّ وسـقياهُنّ، مـرة تـسع البحرَ وأخرى تضيقُ عن ثقبِ الإبرة، يحتضنها الهدوء حينا فتركنُ إليه،

ويثيرها العنفوان فتُرْضِيه ثورة وانتفاضة لحظة، يسكنها التقلبُ كثيرا وترحبُ بهِ فهوَ ما يَسِمُهَا، لكنَّها وفي كلِّ لحظاتها تتفجرُ أنوثة.

وعندَ ذيّاكَ المفترق..

كانتْ تتمايلُ عبقا في إصيصها يهزّ بعضا منها هبوبُ هواءٍ ملوّث، وينشدُ قطفها بعضُ بشر، لم ينتبهِ أحدهم أنّ هذه المتفردة لا يمكنهُ العيشَ بجوارها إلا من يستوعبُ غرابةَ أطوارِ تقلباتها ويعيشُ هدوء أطوار استقرارها، يحتضنُ نبضاتها ويبعثُها في لحظاتِ السكونِ، يحتوي همساتها ويبعثرُ صدى صرخاتها، يلملمُ دمعاتها يستبدلهنَّ بلوحاتِ ابتسام، ينتشي بالضحكة معها ويخفي دموعَها في تجويفاتِ قلبهِ، يعبئ جمالها في قالبٍ يرعاه يغذّي بهِ منبعَ رجولتهِ، ويتنسمُ وجودها هواءً لحياتهِ.

لم يكنْ قد راودَها أي حلمٍ بأن تكون يوما مجردَ زهرة تزين بزة رجلٍ مهمٍ، ولا نظارة ماثلة طولَ الوقتِ بين عيني غصنها القريبِ تعينهما على تكملة نقصهما، ولا آلة حاسبة يدقُّ عليها بأصابع حاجتهِ كلما احتاجَ ذلكَ، لم تكن قد تخيّلت يوما أنه سيرضيها أن تكون سماعة طبيبٍ يلبسها إن احتاج أن يثبتَ قدرتهُ على صنعِ الكثيرِ أو حتى لينقذَ بها روحا على شفة هلاك، لا يرضيها أن تكون محفظة نقودٍ حتى وإن كان مخبؤها جوارَ القلبِ، لا ولم تكن أبداً تتخيلُ أنها ستكون منفضة

أشواقٍ عالقة وبقايا حبّ هزيل، ولا أسيرة قبلة ينتزعها منها رَجُلها كلّ ذاتِ شهوة، يسكِتها بها عن كثيرِ حديثٍ، في حين يسكبُ ما شاء وقتما شاءَ، وأينما شاءَ، ويقولُ ما شاء فيمَ شاء، وكأنهُ وحدهُ يشاء!

كانت ولا تزالُ ياسمينة تتمايلُ على المفترقِ، عالما منفردا يراها الغيرُ، ابتسامتها تشقُّ صدرَهُ جمالا، بكاؤها يأخذُهُ بأكملهِ لقبرٍ ضيقٍ، غناؤها يبددُ حُزنَهُ رقة وهدوءا، كيفَ يُرضيها من فصّلَ قلبهُ على مقاس الدنيا، وهي في كلِّ حالتها تثيرُ غيرة الدنيا!

وتعترفُ الياسمينة على الرغم من كبرياءِ تفرُّدها أنها ليستْ إلا لصيقة قلبٍ ماجَ في بحرِ الدنيا خارجا منها بروحهِ ونفسهِ، لتبني قصرَها الأبدي على ضفافِهِ، يتوحدان جسدا وروحا؛ لا تنازعها السياسة سريرها، أو تقتحم الشهواتُ خلوتها بمن توحدت وإياه، لا تقلقها اتهاماتُ الدنيا؛ ولا زوالُ مقوماتها، أو ذبولُ بتلاتها، ويخلعُ قلبها كلَّ ما علقَ به من بقايا تلكَ البشعة ليتهاوى بين يدي عُمرِ ياسمينتهِ مجردا من زورِ إغراءاتِ الكذب، ونفاقِ الجمال.

الثلاثاء || 15 يوليو 2008م

منصبٌ في الظلّ

تمدُّ يدها خارجا وتجلب هاتفها النقال إلى داخل الغطاء الذي تدثرُ به نفسها، ودون حتى أن تنظر لشاشته تضغط مفتاح الإلغاء ثم تفصل بطاريته عنه، وترخي يدها لتقع قطع الهاتف المفككة على الأرض بجوار الكنبة!

منذ عادت من حفل تكريم الصحفيات المتميزات تكومت على تلك الأريكة كعجوزٍ ملَّ من كل ما في الحياة - فوضى، رسميات، تكرار، صخب، تشوهات، عقوق، وتقليد أعمى... وليس ذلك فقط! - لفت نفسها بملاءة غامقة اللون حتى لا يتسرب ولو شيء من الضوء إلى عينيها فيزعج نومتها.

ثلاثة أيام متتالية لم تقف فيها الشمسُ عن تسليط أشعتها مرة بعد مرة عليها وكأنها تقصدُ إيذاءها، غير أن ذلك لم يزعجها قدر ما

أزعجها الاحتكاكُ بالفارغين – إلا من التفاهة – وربما لم يستفزها شيءٌ كما استفزها ترديدها لكلمتي (حاضر / شكرا) آلاف المرات ردا بل مجاملة متجددة منها لانفعالٍ واحد يصيبُ الجميع في اللحظة ذاتها.. ولا تراه إلا عرضاً واضحاً لـ«جذام النفاق» ولطالما تعثرت بهؤلاء الذين يشعر الواحد منهم بحكة في ضميره إن لم يتملق أحداً ما!

صوت يأتي من التلفاز خافتاً..

«أوووف» تمدها هكذا ثم تتابع بنكد بعد زفرة: «حتى أنت! ينقص أن أسد أذني بالقطن!» وتنزع الغطاء عن نفسها وتتوجهُ ناحية باب الغرفة فتحكمُ إغلاقه وتعود لحضن أريكتها. ثم تنام نومة عميقة ومريحة إلى حد مُرض.. على الرغم من أن القلق والنكد لم يناما، لقد ظلا منتصبين مسيطرين على عقلها الباطن يغذيهما إلحاح الرغبة في راحة حقيقية.

الناسُ يحفظونها جيداً.. ذلك يعني أن الشمسَ مسلطة عليها باستمرار.. لا طول اختفائها قادرٌ على تخبئة ملامحها، ولا البيت حتى أضحى قادراً على حبس سُكّرِ عبقها، الشمس كانت تلسعُ أحشاءها وتؤذي روحها أكثر من وجهها وبشرتها، كانت تصيبها ضرباتُ الشمس باستمرارٍ في قلبها وإحساسها فتحرمها الهدوء والراحة.. ما مدت طرفها

خارج المظلة التي تختفي تحتها إلا وآذتها الشمس مباشرة، كأنها فرغت نفسها لملاحقتها. كل الذين في مكانها قد يفكرون بنفس طريقتها وقد يحبون ذلك، أو يستسلمون له على الأقل.. لكن ما تشعر به هي في تلك الحالة هو الضجر، الضجر، الضجر، الضجر ولا شيء سواه!

وعلى الرغم من أنها في ذلك اليوم.. كادت تقتنع أن المشكلة الحقيقية موجودة في الشمس، إلا أن ملاحقة العيون والتوهج اللذين قد يروقان لغيرها، ولا ترى فيهم الشمسُ غريما لها، إذ لا أحد يستطيع الإشراقَ في حضرتها، وصاحبتنا زادها ذلك إصرارا على القرار الذي اتخذته بأن تظل متوهجة لكن في فيء ما!

الجمعة.. هو يوم إجازتها الوحيد الذي قررت أن تمنحهُ لنفسها، للمقربين، لغرفتها، وعالمها الحالم، كانت فكفكفة الهاتف أول طقوس استقباله، تليها تهيئة نفسها لتلك الإجازة المتجددة، التي تنسى فيها كل شيء وحتى من تكون — كم أصبح عمرها، وكم بلغت قامة همومها، ما هي صفتها الشخصية، وما هو وزن مسئولياتها – وتصبح الطفلة المرحة التي تقفز مرة خيالا ومرات حقيقة وتتنقل في أرجاء عالمها بخفة، زهرة تفوح عبيرا حين تتوسطُ أهلها لتبدو كفاكهة الحياة بينما تضاحكُ الأطفال والكبار.

كانت خصوصية يوم الجمعة تسبب لها المشاكل مع الباحثين عن الشمس بالذات/ فالغيرة تفعل الأفاعيل في قلب هؤلاء، الذين يتعرضون للشمس عنوة فتشيح بأشعتها عنهم، ثم يرونها تشرق مختارة على رؤوس الفارين منها، الشمس لا تحقد على هؤلاء فتظلمهم لكنها تراهم لا يستحقون التوهج، ببساطة هم يبحثون عما لا يليق بهم ويفشلون مهما تعرضوا للشمس وإن عرفهم الجميعُ، فالشمسُ تبحث عمن يمكن أن يعكس شعاعها بشكلٍ أفضل.

لا شيء يؤذي صاحبتنا كالخروج إلى الضوء، إلا أن رائحة تألقها كانت تفوح أكثر مما تتخيل هي نفسها، ولا تزال على ذلك تعتقد بأن لا منصب يمكن أن تشغله أجلّ من منصبها الكبير في عالمها. ففيه هي الروح، هي القانون، هي المكافأة، وهي العقوبة.. تتخيل نفسها الملكة والشعب وكل شيء.. لقد أسست هذا العالم بالكامل واتخذت منصبها الحقيقي في ظله.

الخميس || 4 سبتمبر 2008م

اختزال

لمحَني ذاتَ اختلاسٍ أنيقٍ فهمَسَ:

هبيني البقاء!

أنتِ هبيني البقاء يا دوحة النقاء.. يا توأم قلبي.. فأنت.. ولا أحد غيرك أتقن التسلل عبر كوّة قلبي ليلا والبدر يلملم نوره خوفا من انكشاف أمرك.. تسللتِ وأدخِلت الرمز السري لبابٍ لم يفتحه أحد.. وحين دخلتِ فتحتِ جميع الصناديق بترانيم مقدسة لا يفهمها إلاي وأنتِ وأبناء التنظيم السري الذي يسمى.. الألم... فوجدتِ صندوق حبٍ وصندوق خمرٍ حروفا.. وثلاثة صناديق من ملابس الجواري الملائكيات النائمات على رصيف الصندوق يسلّين حلم الأمير.. وقت نومه يستيقظن.. ووجدت صندوق أمل.. ومئات الصناديق التي تحمل أقفال السماء.. وتحوي آلاف الآهات.. ألا يكفي هذا استعراضا بسيطا لما انفجرَ في قلبي بعد أن عزفتِ

مقطوعتك تلك؟

سماح..

هل لي بكِ دوما؟؟ فأنت عالمٌ لا مثيل له.. أشتاق إليك جداً..
صباحك جميلٌ كأنتِ..

إليكَ:

بل.. هل لي بأقل شيءٍ يمكنهُ أن يفيك ردا!

اعمُرْني بكَ علَّ البقاءَ يزهر في كليْنا!

سوأة العجزِ تتكشف بعد صراعٍ طويل مع كل أغطية الستر، في حين تستمرُ الأخيرة بمضغ كلمة واحدة: لن أخدع.. لنْ أخدع!

تسرع مرة في المضغ ومرة تبطئ جداً.. تتابعني بنظراتها وأنا أتقلبُ حيرة.. وأحترق بها بيننا أشعر ببرد التعري أمام رسالة بَنَتْ من قصصِ الوُدِّ في كفي عُشا، فاستأنستْ ببعضها فيه.. وفرَّخت بيضاتها عن مزيدِ حيرة حارقة وأرقٍ مستبدّ!

نعم سيدي.. باردة هي كل الأسطح على الرغم من هذا الحرّ «غير المرحَّبِ به» الحرُّ الذي لا يزالُ يصبُ نفسه فوق رأسي بانسيابية غريبة.. حتى إنني بتُّ لا أعرف حقا هل أعيشُ هذا البردَ وحدي أم يحياه كل من

حولي!

لا تقلق.. فقد لامسَ حِسّي الآنَ دفءُ الأمل الجميل الذي يزرع نفسه في رغما عن برْدِ الشرودِ!

سوادُ الليلة كان أبيضا.. هذا الليل بالذاتِ كان نعيما ملفوفا بأوراق هدايا مغرية، وأملا يرتدي ربطة عنقٍ وبزة فاخرة!

كلٌّ ذلك فقط لأنني شعرتُ أخيراً أن هناك وطنا يمكن أن يلملم ولو شيئاً بسيطا من شتات العالم الجديد، العالم الخلفي للواجهة الباذخة التي لم تزل تستعرضُ انتصاراتٍ وهمية وقشورا بضّة لكنها واهية..

منادٍ لم أعرف له هوية زارني ولبث عندي طويلا حتى انفجرت في وجهه صراخا ونحيبا وارتميت في حضن عنقائي العظيمة أرتلُ أغنية الإعداد، وأتربصُ هِبة البقاء!

ربما لم يكن مناديا.. نعم؛ أوافق.. هو ماذا إذن؟ ليسَ مرضاً، ولا عارضَ موتٍ قريب، ولم يكنْ غرقا في التفكير لدرجة الانزلاق إلى العقل، ولا كان سهوا بغيضا!

حتى عنقائي العظيمة.. كانت أغرب مما تخيلت.. وهي التي بعظمتها لم أعرف كنهها ولم أستطِع وصف حقيقتها.. على الرغم من

بكائي الطويل في حِجرها، بتُّ أعتقد أنها تغيرت كثيرا، فلم تعد ناعمة الحِجْرِ، ولا دافئة العناق.. ولم أحتمل نفورَها أو أستطع أن أحصي مسافة ابتعادها عني بيننا أتمرّغُ بين قلبها وضميرِها، حتى جاءَ يومٌ لطمَتْ فيه خدي وأوصدَتْ درب الحياة أمام قلبي الذي كان أثيرا ذاتَ حنوّ!

أعرفُ جيدا ما الذي يراودك الآن.. أتصدقني؟ حتى أنا أفكر بذلك.. ما أغربني عن العالم الذي أحياه.. أو أنآني عن دربٍ حري بمن هي مثلي أن تسلكها، ما أبعدني عن نقطة الفوز التي أحلم بها، وأقربني إلى نقطة النهاية التي يشير إلي من حولي بها!

منذ استقرت رسالتكَ في باطن كفي، وبَنَت مملكة التمرد المتجرّد فيه، بدأتُ أتقلبُ حولها لعل ثغرة تجعلني أعيدُ الإرسال وأنا قوية، إلا أنني في كل مرة كنت أؤجلها للغد الذي لم يأتِ بعد.. لعل فكرة تخترقُ عجزي وتنفذُ إلي فتعينني على ترويض ابتلائي المُعجِز لأستطيع أن أمنع استحالة مجيء الغد الذي سأعيد فيه إرسال النصّ للرد على رسالة أخذتني للبعيد.. ويا للأسف! لم تخترق الفكرة فلكَ العجز المحيط، بل لم تحاول.. ولا اقتربت منه.. ولا نوَت ذلك حتى!

لكن بعد أن انكشفت سوأة عجزي لم أجد بُدًّا من اختزال كل المشاعر السابقة وفضحها هنا!

ومناي فقط.. أن أستطيع وصف انجذابي بل وذهولي الواضح، لمّا أخذتني الدموع المرتعشة من كل شيء وأنا أقرأ لأول مرة أسرار التنظيم الذي يرغمنا على الانتماء إليه بإخلاص ودون أي مقابل.. ومع أنني لم أعرف لتلك الدموع سببا حقيقيا.. إلا أنني لم أبحث عنه، ولا فكرتُ حتى في التفتيش عن جُرمه وجرأته.. إلا أنني وبحقٍّ.. أقررتُ بمدى فاعليتها في توسيع خانة النَّكد على الرغم من الفرحة العارمة التي حاولت تضييق خانته!

أسألك: لم يجتمعُ أبناءُ هذا التنظيم بالذات على عادة واحدة.. ألا يبوحوا إلا بصمت جارح، توقفهم شهقاتُ الدموع كثيرا، وتمنعهم الأنفاس المتلاحقة من إتمام البوح قبل أن ينقطع الصوت أكثر من مرة.. لماذا عندما يكتب أبناء هذا التنظيم يستخدمون النقاط أكثر من الحروف؟ وإن تحدثوا فعددتَ زفراتهم وتنهيداتهم وجدت عددها يفوق عدد الحروف التي يلفظونها؟!

سؤال آخر وأخير:

هل لكَ أن تخبرني عن سبب كل ذلك؟ بصيغة أخرى.. هل عرفتَ ما الذي انفجر في كفي وقلبي! لما لامستهما بل تغلغلت في نهايات جدائل الإحساس فيهما برقيتُك المعجزة؟

هامش

أنت.. من ابتدأ التحرُّشَ بصبايا الحسّ النائمات

وأيقظ فيهنّ شهوة البوح على جمر انتظارهن الـ«لا لذين»

لشيء يُصر ألا يظهر.. إلا بعد أن تُفقدهنّ غيبتهُ معنى الحياة

أنتَ من جعلتَ الكوة تختزلُ العالمَ..

وكتبتَ بيدك سطر البداية لأنطلق

فلا تلمني!

إن أسال مدامعك التي لا تزال ندية.. تقطر رقة وصدقاً وجمالاً خاصاً

لا تعاتبني كأبناء التنظيمات الأخرى، فليكن ذلك كما تعلمنا.. وعلى الطاولة إياها

أمنيتي الأخيرة.. رجوتك بأن ترشقني بماء الوردِ..

قبل إعدامي على نواصي برقية جديدة

..

لستُ أدري اليومَ بأي لون أوقّعُ! فما عادت الألوان تمنحني

البياض الذي عرفت!

ليلة التاسع والعشرين من رمضان.. هي ذكرى الميلاد وأمنية الرحيل، فيها نزفتُ العجزَ مختزلاً / وفيها سلَمتُ هذه الإلياذة لأسنان الحياة، ولا أعترفُ بأنّني الجانية إن مزَّقَتْها بأنيابها.. فقد مزقتني قبلا وها إنّي/ أنا.. وهِبَة البقاء!

الاثنين || 29 أغسطس 2011م

قصاصة.. لم يعطبها الحنين

ذاتُ الوجه بسمرته الفاتحة.. الوجه الخمري الهادئ جداً.. ذات الإيماءة.. تمريرة اللسان بين الشفتين.. بل حتى ذات الحركة التي (...)..

تربكني (جداً) لحظة مرورها.. بل تحشد في خيالي جيشا يقود جنوده المستنسخين عنه قائدٌ يلبسُ حتى ذات المنظار الطبيّ، وذات السُّترة، بل وحتى ذات الحذاء المغبر (الذي كان دوما يبدو وكأنه ابن الصحراء أو وتد الخيمة!).

الوجهُ الذي حين يحضرُ أتمنى أن تستبدلَ روحي البسيطة نفسها بروحٍ قوية معقدة تحتملُ سكين الحنين حادة الوجهين أو حتى تناورها فتنجو!

يعذبني هذا الوجه كل ليلة ويصلبُ جفوني على قارعة السرير..

تشتهي النوم وتربتُ على أكتاف النائمين، كفقيرة كلفها «فكهانيّ» بأن تمسح بمنديلها التفاحَ كل صباحٍ ليلمعَ فتشتهيه دون أن تذوقه! غير أن (مصيبتي) أدهى فهي ربما لا تملكُ ثمنَ تفاحة ولا تجدُ حتى من يقاسمها الثمن والتفاحة!

لا يزال يستمتع هذا الوجهُ بمجاورتي كل ليلة لأبدو كطفلٍ صغيرٍ يلاحقُ ظلهُ على الحائط مرة وعلى الأرضِ أخرى (وأحدِهم) يلعبُ بمسار الضوء والجميع يقهقه!

لا يفصل بين أنملتي والوجه شيءٌ.. لكن سياجا – لعينا – ينتصبُ بينهما كلما قررت يدي التسلل حتى دون حبالٍ وقاية.. كجندي محترف!

لقد شاخت في ذاكرتي الصور التي لم يمض على رحيلها أكثر من يومٍ ونصف اليوم! وتجعّدت المعاني في هذا البرد القارص! حيث كل شيء ينكمش، يتقارب، يتلاصق، يشملهُ الجزرُ..

إلاي وأنتَ وحنيني وعثراتُ الحظ!

منهكة أبدو.. كأن لم تجذبني لحظة شقاءٍ من قبل.. والسقمُ.. يتملك قلبي الذي يبدو مستهلكا أكثر مما تخيلت!

أين يمكن أن أداريها.. مشاعري البكرُ.. يخونها الدفءُ ويقطعُ هدأتها صقيع اختفائك المفاجئ.. ملتاعة تلملمُ ثوبها والرجفة تطيحه فتكشف تضاريس تفضحها!

وكيف أجرجرُ حزني الثقيل.. يكاد يُذبلُ حلمَ استيقاظِ أملٍ ملَّ النومَ في عشّ الجمامة التي كانت تؤنسني وتقطنُ نافذة غرفتي!

أمد يدي إلى النصفِ المحرّم من الحياة لأستعير ولو مظلة مستعملة أتقي بها؛ بل أحاولُ أن أتقي برد الوحدة التي تنزلُ على ذاكرتي كشهابٍ يمزقُ أوصالها ويقسمني نصفين.. أولهما ضائع والآخر مقفل!

فنصفٌ أفقدنيه البحثُ عنك قبل مجيئك.. والآخر صار ذاكرة مغلقة تجاهدُ حتى تحفظ كل ما منحتني إياه الفرصة الضيقة بقربك!

أحاول بها أن أتقي حتى ريح زهور اللحظة التي لم يتحْ الحظ أن تكتمل فأحتفظ بها في صندوقي الخشبي الذي اشتريته خصيصا لأعبئهُ بالقصاصات التي نتبادلها، لقد فاجأتني ذكرى اللحظة الوحيدة والقصاصة الوحيدة أنها حتى مقضومة الطرف!

وقد بتّ أخشى أن تصبح مع تقادم خيبتي غير صالحة حتى لاتكاء



ياسمينة ترتقُ جرحا

على الناصية..

بقعة ماءٍ وياسمينة ناعمة لا يزال عطرها مخبوءا بين خطوط الحياة فيها، يغفو الندى على بتلاتها، بينما ترفرفُ الحياة فوقها كفراشة غريرة، تتأرجحُ مشاعرها هائمة بين طرفي امتداد إغرائها.. ينقصها فقطْ بعضُ النَّزَقِ لتعودَ مشيقة، أو حتى لتصنع لنفسها ثوبا أنيقا يكسوها بالرشاقة «ولو كذبا» حتى تخفي عمقَ الجرحِ عن عيون العذل المتمرد..

عطرها لا ينتظر موتها ليفوح، بل ينتظر أن تفوح حياتُها بلقاءٍ ليفوح هو فيهرقَ في حناياها الرطيبة أريجَ الحياة فبها يعيش هو، ويهمس في روحها الثرية بإحساسٍ شهيٍّ، لا يمكنه إلا أن يندغمَ في أحشائها، يأبى عربدة الغيابِ، ويتمتمُ بصلوات البقاء.

يلمحُ يوما نظرة ظامئة في عيني ورقة شاردة لا تزالُ تجدل أغنية اللقاء في عباءات الوقت، وينسرحُ عقله في دربٍ نافرة تثيرُ تفاصيلُها فضولَهُ، سيّما حين تدغدغُ وجهَ الغدِ بأنامل الياسمين فتزهر أملا في شروق لحظة العناق!

الصوتُ الرقيقُ إياه الذي اعتادتهُ يرخي نفسهُ فوق قلبها، ها هو أخيراً يتحلّقُ إحساسها ويرشَحُ عليه دفئا وبقاءً ممردا كقصرٍ من ورد، جدرانه هي إياها الجدائل القديمة التي جدلاها معا.

قصرٌ مضاءٌ بالحروف المنبسطة سقفا لا يسنحُ تعانق خلاياه فرصة لظهور أية نقطة ظلامٍ، وتمجُّ ذراتهُ بردَ الغيابِ، يندلقُ في أروقته الدفء يعانقُ فيها ما تبقى من صقيع الحياة بين أنيابِ الوحدة المقيتة، لكنها أبداً تبقى تزمجرُ في مخيلتها صورة الرحيلِ كالوحش الضاري..

صورة الرحيلِ.. و«شنطة» السفرِ.. وأحزمة الانطلاق.. وصافرة إسدال الستارِ على الحلمِ القديمِ.. كلُّ تلكَ الحكايا تعيها الياسمينة، وتبثها دمعا كأنه الندى أو تتمايلُ بها تلصقها في جدران قلوب الورد الملتف حولها.. لكنها أبداً تجرعُ مرارة الخوفِ من غدٍ لا ملامح له!

ولا يطولُ وقتُ انبلاجُ النور.. لأنَّ أية لحظة حلمٍ لا بدَّ أن تنهيها

يدٌ تهمزُ بالاستيقاظ لجسدِ الوردة الملقى في مدائن الموت.. رقيقة كانت أم «غثيثة» تلك اليدُ، لكنَّ لها الشأنَ الأكبر ودورَ البطلِ في قصة الياسمين معتق الحلم، مجروح الوريد!

أيا كان الغصنُ الذي سينتشل الياسمين من صقيع الغيابِ، وإن التوت به الدروبُ قبلَ الوصول، أو انتهى إلى لهاثٍ داكنٍ بعدَ سفرٍ سحيق.. سيكون بلسمَ الأبدِ، بعدَ وجعِ الرحيل!

الأحد || 11 يوليو 2011م

خطايا الحروف

مدخل..

بيتان منَ الوردِ سقفاهما..

وجدرانهما كأنهما الندى المتعانقِ في تناسقٍ فنيٍّ..

أثاثهما حلمٌ وردي لا يموت.. حتى إن لم يتحقق،،

ولا بابَ للبيتينِ/ إلا قلبي عاشقينْ!

~

السرُّ أن أنفاساً دافئة، تسقي جذورَ الوردِ ليتنفسَ لقاءهما والسهرَ، أنفاسٌ لا تزالُ تنفثها روحان التقتا قبلَ الخليقة.. تتمايل بها أغصان الورد وينتعش فلا أجملَ ولا أغلى!

روحان تُرَشقان الجمال على لوحات الندى التي تنسدلُ ستائر بلون حميم..

يحققان القمرَ بمصلِ الدلال ليتباهى القمرُ بهما، حاضنا روحيهما، وعلى امتداد ليلته، يغني فيروزَ وتغار الحسناوات، أو يتقافزُ العشاقُ يتسابقون لاستراق همسة تمنحهم عمرا وأكثر..

والقمرُ الرقيقُ لا يرجمهم بشهابٍ.. أبداً!

هو لا يرجمُ عاشقا بالشهبِ؛ فالقمرُ متكأُ العشاق..

كلما ارتفعت بهم رغبتهم مسحَ القمرُ فضولَ عشقهم.. بدمعة فرحٍ ولودْ، خبأها لديه بعد أن نزفتها عيون عاشقيه الأثيرين في ذات اجتماع آهلٍ بالشوقِ والحميمية.. فدموع العشاق غالية!

في البيتين كان ولا يزالُ نبضٌ لا يرضيه إلا نبضاً «حسبَ المقاس» وأي المقاساتِ يمكنها أن تناسبَك إلا تلك التي نبتت حولَ قلبكَ كالخيمة الحامية!

مذ كنتَ ذرا، ومذ انفلقت روحكَ نصفين فاحتفظتَ بالجميل ومنحتها الأجمل؛ أية روحٍ يمكنها أن تلهمكَ القصيدة الأجملَ، وتمنحكَ العمرَ الأجمل، إلا تلك التي خصصتها بالجزءِ الأجمل!

يا لها.. انتشاءة القلب باكتظاظ الشهوات في ساحه، ويا لهُ.. شهوة الحياة، وشهوة الضحكِ وشهوة البكاءِ، وشهوة الحلم.. أي الشهواتِ تعدُ يا قمر، وقد اشتعلت في شهوة الاشتهاء!

أيمكنك أن تقسِّمَني لأجزاء وأنا الأثيرة لديك.. أيمكنكَ أن تقرأني إلا «كلًّا» لا يقبل التجزيء!

وكلّي الآن كتلة شهواتٍ لا يفهمها إلا أنتَ..

إلا الستائر المنسوجة من خيوط الندى الذي ترشه أنفاسنا، وإلا بتلاتُ الوردِ التي أنعُمُ في حضنها لما تدغدغُ أمنياتي بهمسة أنيقة، وإلا الحلم الوردي الذي يسكبُ نفسهُ في كأسِي فلا أملكُ مقاومة إرهاق نكهته، وإلا قلبينا الذين لا تحدّ التصاقهما التواريخ والأزمنة، ولا تهددُ التقاء الفرح في عيونهما مخالبُ الألم.. (إلّانا) لا أحد يمتلكُ جرأة التعري من فضول النظرِ إلى سوأة القوانين، أو يمتلكُ تذكرة العبورِ إلى غرفتنا المعبقة بنا وفقط!

يطربُني الحديثُ المباحُ في كتب الحبّ، وتسلبني من مبادئي كلُّ نصوص العشقِ التاريخية التي سردها طويلا أسيادُ الإحساسِ على مسامعِ ورداتهم من وراء حجاب!

تطأطئ أية قيمة هامةَ تطاولها حين أقـرؤكَ في دفـاتر الإنـشاء، أو ألمحُ قلبكَ يسبح في نهرِ خيالي الغضّ، أو عيناك حين تغرقان علنا وتسلما الأشرعة للريحِ دون خوفٍ من المقبل، وتطأطئها أخيراً حين تلتقي قبلتـان طائرتـان في سمـاء اللقـاء اللامكتـوب، فـتهمسَ كـلٌّ منهمـا للأخـرى، أن أنتظرك صاحبي طويلا!

هل أحدثكَ عن حكايتي مـع النيلـوفر؟ أو أمنحـكَ رخـصة امـتلاك التوليب؟ مممم هل يغريك اللوتس وربما الغاردينيـا أكثـر! أم أنـكَ تـصرُّ كما دوما على انتقاء الياسمين والزنبق، بحجة أن دلالا ورقة في تمايلـهما تشبهان تفاصيل حبك، أووه سأستسلم؛ ولن أتحدث عن الورد فكل الورودِ لا تشتهيها أنتَ قدرَ ما تشتهي هي أن تكون اختيارك!

أيها السرُّ الكبير..

تراتيل الحب التي تتلوها خلايا روحي عند بوابة قلبـك المقدسـة، لم أجتهد كثيرا في حـشوها بمطلـق البلاغـة، لكـنني أودعتهـا عقيـدتي في الحـب: الحلـم مبـاح، والبـوح مبـاح، والتنهيـدات مباحـة، والأمنيـات مباحة. والواجبات أنتَ المُشرِّعُ لهـا والمحاسِب عليهـا. لا أطمحُ بجـزاءٍ أعظم مـن أن تكـافئني بـالقرب؛ فـلا شـيء محـرَّمٌ في عقيـدة الحـب إلا أن توليني جلالة سلطانكَ ظهرها في لحظة ضـعفٍ أنثـوي لا يداويـه إلا كفُّـكَ

وإحساسٌ عميق!

لا أنا صانعة الحبِّ، ولا أتقنُ إلا استحضاره «سقاءً للروح» لمَّا أكون أمامك.. فأملكُ حاسة الاكتمال البشري التي تمنحني إياها هيبة حضورك.

ولا أنتَ عابرٌ أضافَ اسمه في قائمةٍ، بلْ «متجذرٌ أزلي أبدي متفردٌ» تشغلِ أربعةِ أرباعِ القائمة، تتربعَ في مقدمَتها والعنوان، وتتمددُ عبرَ حشوها وحدك، وتُغلقُ الأبدَ في نهايتها والتذييل، وتغلفها أنت.

فيا سرّي العظيم؛

لا الحديث ينتهي، ولا قصتي لها ختام..

لكنَّها أربع ساعاتٍ، أربع أغنيات، أربعة كتبٍ، أربعة دهور!

الديك صاح وألجمَ حسِّي، فقد طلعَ الصباحُ وإحساسي لا يزال في مرحلة التكوينْ، لا الارتعاشُ أيقظني ولا ارتجافُ الدمعِ على بوابات الجفون.. فأي مخاضٍ هزني!

~

مخرج

لقد أرسل يقول:

الحَديثُ معكِ لا يُمَلّ، ولو كان لساعاتٍ طويلة، منحازة إلى الدلالِ

والأُبَّهة «والدلع» المنفردِ بالأدبِ، والسُّموّ والعظمة!

كوني عزفا لا يتكرَّر، وأغنية ميَّاسة الأنوثة!

وأقول:

أنا هيَ، يا سِرَّ كَوْني، لكنَّ العمرُ لا يكفي،

فليقرأنا المارُون من هنا!

اليومَ يا سيدي يدخلُ الشتاء،

والقمرُ في الشتاء لا يقبل أحضانا خالية

على بوابات الربيع سيكشفُ القمرُ الستار..

لنصنع الربيع

ليلة الأربعاء || 22 ديسمبر 2010م

ثلاثون شيئاً

مُدِّي يديكِ.. اكتبي على جبيني بماء الورد كلمة واحدة لطالما تمنيتها منكِ أنتِ وحدكِ.. أسعديني ولو لمرة يتيمة.. انثري حولي شيئاً من جلال اسمك.. ورفعة مكانتك.. أمدِّي العُمر بحصاد الرخاء (إن بقي في ضيق السنين عُمر).. شرِّعي نظراتك الليلة.. كوني زرقاء اليمامة لأجلي وإن ارتديت الوجه القبيح لتفسدي طُهر دمعة الملاكِ في ليلة التوبة.. كونيها ولو بعيني غُراب، انظري الغد وأخبريني عما سيتلو..

سطِّري ما شئت من أقدارٍ على صفحة كَوْنِي الحالِكة واجهته، المترهلِ صِباه، السمجِ جماله، والعاجزة فرحته، لا تعبئي بنحيبي ولا بغضب الكائنات، بل غُذي الخطو نحو ركح الجريمة بهمة بطل.. وانصبي الأمنية مشنقة أو إسارا لا ينفكُّ إلا بإذنك.. أو حتى أقيمي بميقات أبدي فرضَ الغضبِ وأتبعيه بركعاتٍ أربع.. في أولاهن تشدقي

بسوأة المصير البائس، ومع الثانية اطلبي من مأموميكِ محاكاة ببغاءٍ أبلـه ليؤمنـوا بعـد كـل نفثـة حقـد، وبـين سـجدتي الركعـة الثالثـة عُـدِّي الانكسارات المتلاحقة وعلقي على نقطة السطر الأخير لكل منها أمـراً كـي لا تنصرف، وفي ختام الرابعة.. سبّحي كما تعلمتِ.. ورصّـي مـن عُلـبِ البلوى قدر ما استطعتِ.. واجلبي لبلاط عمري بـدعوتكِ كـل سـوء يمكنـكِ جلبه.. ثم ابصقي عن يسارك ثلاثا قبل أن تُقرئي الكون السلام.. كيلا يظل سلامك ظامئا لسلام!

لستُ أدري لِمَ أبوحكِ أشياء كثيرة.. ولِمَ أقـف بـيني وبـين نفـسي الـ(...) أرغمها على اعتمار خوذة لا تناسبها إطلاقـا.. وبالـذات في هـذا اليوم الذي كنت أقسمت على نفسي أن يكون مختلفا، أن يكون جميلا على الأقل، أن أمسك فيه أوراق العمر واحـدة فواحـدة.. لأقـرأ ملامـح الأشـياء دون أن أعاني مع شبحك المتأصل في وفي طيات دفتر الحساب.

(ف.ر.ق)

أسألكِ.. لِمَ احتفظت بالأحرف الثلاث إياها قلّبتها يمنـة ويـسرة، منحتها من بؤس طالعكِ ما وشت لـكِ بـه نفـسك «الغثيثـة» ركّبتهـا كمـا أردتِ.. وشكّلتها على كل أوجه البؤس التي عرفتِ (قرف، وقفر، وفرق، وفقر..) ونسيتِ وجه الرفق.. لم تمرّي به ولو خطـأً.. علـى الـرغم مـن أن

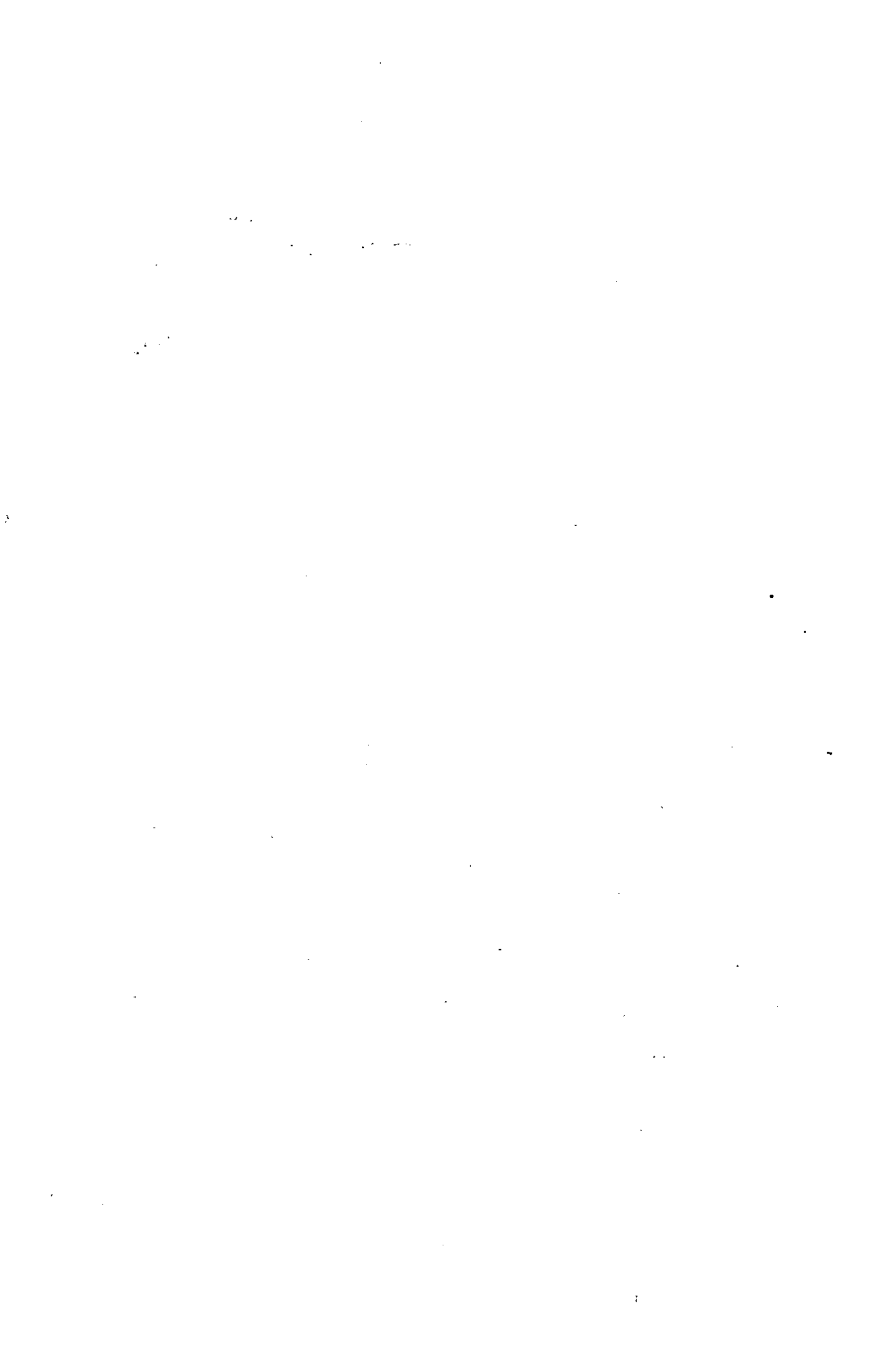
واجدَ البشرِ لا ينتظر ممن هي مثلكِ شيئاً يذكر.. فهو لا يحتاج من كل الدنيا سوى [إنسان] يحتويه، يحبه، يغمره، يمنحه، يقبله على عيوبه، يقاسمه أشياءه، ويفيض عليه من أنسٍ وودٍّ ورحمة وحنان ما ستعجزنا حكايته.. فتلكَ أشياء خُلِقَت لنشعر بها وفقط!

أشعر الآن أنني أحتاج هزة حقيقية تشعل في الحياة من جديد.. تمنحني تذكرة العبور لما تبقى.. إن كان قد تبقى شيء!

ها إنّي أقف على آخر السطر.. لا لأضع نقطة الختام، ولا لأكون أول المسافرين إلى سطرٍ تالٍ، بل لأنني سأسحب الستار.. وأمضي.. فقد مللتُ قرف الرتابة، وقفر الإنسانية، وفقر الروح والفرق في كل شيء، كرهتُ الأشياء جملة في اليوم الذي كان يجب علي فيه أن أبتسم للأشياء وأدعها تمر من جواري برفق.. فأعطيه لمن بعدي هبة.. هذا الاسم الذي رميتني بكل شيءٍ إلاه.. على الرغم من أنني لم أطلب سواه!

هذه هي رسالتي إليكِ وأنا أقفُ على شفا الهاوية! بين يدي ثلاثون شيئاً كنتِ أنتِ من رميتِ أولهنّ في حِجري فكرّت الباقيات إلى نفس المهوى!

السبت || 30 يوليو 2011م



سمر الليالي[4]

الأقطاب..

حين تلتقي دوما.. تحدث انفعـالا غـير مـسبوق، وتحـدث قرقعـة مقصودة.. أتحدثُ عن الأقطابِ المختلفة!

الأضداد..

حين تلتقي دوما.. لا بد أن يكون هناك شـيء مختلـف.. لا يمكـن بحالٍ إلا أن تحدثَ ضجة ما.. فيعرف الجميع ميزة التنافر!

تقول: لماذا تخبرينني بذلك؟

أهوَ درسٌ في الفيزياء مـثلا.. أم أنـك تظـنين أنـني لا أعـرف تلـك المسلمات!

---

[4] هكذا كان يسعدها أن تلقب نفسها صديقتي: سلوى نصّار.

وأقول: أبداً.. لكنني أستحضر كل ما أتخيل.. في مثل هذا الوقت!

وأبتسم بعد أن أهمس:

(حرارة القرب الروحي أشعر بها.. فتجعلني أستحضر ثوابتي)!

تمزقُ ورقة كانت تمسكها بيدها تريد أن أتلو لها قصيدتي الأخيرة.. لتسجلها لديها!

ما أجملها حين تغضَب.. وأخيراً تقوم وتهرول ناحية الباب ((غضبى)) فأتعمد الهمسَ:

الورد

عالمي.. الذي فيه أكتب من الحكايا ما لا يمكن بحالٍ أن أكتبه إلا فيه!

والشوكولا والشموع والموسيقى.. طقوس مقدسة.. ومدائن خاصة لا يدخلها معي إلا من أردت!

تقترب.. تدنو مني.. تدنو أكثر وأكثر.. تصرخ بفرح لاهث.. تشهق وأسمع بنيات قلبها تحدثني: أحبكِ..

وأنا أصدقها كما لم أصدّق غيرها.. وأحتضن قلبها كما لا أتمنى أن أتركه! وأحتضنها وأدمع!

أقول: أنتِ أرغمتِ فرحكِ أن يتسلق كلّ جدران حزني في تلك الليلة..

إنها ليلتكِ.. يومك.. الذي أرغمتني فيه على الفرح.. لنقوم معا أخيراً بتشويه وجه المسلّمات التي فرضت نفسها علينا عمرا..

لنقوم معا أخيراً بتقبيل وجه الحرية التي اخترناها لأنفسنا وضمتنا بجنوننا.. ببراءتنا

تعبث أناملنا بنفس اللحظة ببتلة وردة جورية أحضرتها (لأنها تحبها) وفقط! تلتقي عينانا.. تلتمع فيها الدموع.. لكننا نبتسم ابتسامة مشتركة.. جدّ ناعمة.. جدٌّ رقيقة.. تجمع قلبينا رقصة فرح تدومُ لدقائق.. وصمتٌ يحتوينا..

تهمسُ والدمعة تبرق في عينها: ألهذا أتيتِ بي إلى هنا!

أستمر في صمتي العميق، فتتوقف عن مشاركتي الرقص الافتراضيّ.. تنظر إلي عميقا.. أشعر أنها تقرأ تاريخ الحبِّ في التماعة فَرَحِي اللحظيّ..

تصفق.. تصفق بشدة! تبتسم والدمع يختنق ثمّ ترتمي كزنبقة رقيقة بين يديّ.. ويتهدج صوتها: شكرا.. متقطعة (لكنها وفية.. مفعمة

بالإحساس).

تعرفين يا زهرة الأمل/ أن الورد يغريني حين يلتمسُ منكِ رقته..

وتعرفين يا بلسم الألم/ أن الموسيقى تحلو حين تلتقطها روحك!

كل الرموز والأشياء.. كل المغاني.. كل الحروف، وكل الكلمات تقف معي الآن.. على أعتابِ عمركِ المزهر.. تهمسُ في روحك وقلبك: أنكِ أغنية الفرحِ على المدى..

كل عامٍ وأنتِ سلوى والمعاني ألف!

الأحد || 19 ديسمبر 2010م

الخطيئة رقم واحد

لا أحد في المنزل

النوافذُ محكمة الإغلاق

الصمتُ مخيف

لكنه الوقتُ المناسب!

تحضرُ جهاز التقاط النبضات الذكي الذي أحضرته - بالسر عن أمها التي بدأت تشك في تصرفاتها في الفترة الأخيرة - لهذه اللحظة بالذات، وتثبته بينها وبين مذكرتها التي تسجل فيها انفعالاتها أولا بأول.

في المرة السابقة لم تكن تعرف كيف تستعمل جهاز رفيقتها

العفريتة – يبدو أن هذه النوعية من المتلكات تعرف أصحابها جيدا – لكانت سجلت تلك اللحظة قبل عامٍ على الأقل، أقدارٌ.. وفي أول مغامرة، أول خطيئة.. لا يملك داءُ الحماقة إلا الاستسلام للأقدار.. كيف سيصرَحُ أحد المجانين – كما ترى نفسها – عن رغبته بممارسة الخطيئة لأول مرة، ليستجدي العون!

– مثل هذا الجهاز لا يعمل إلا في الظلام «بصوت أكثر خفوتا قالتها رفيقتها».

– لماذا؟ «بصوت خافتٍ أيضا ردت».

– ارفعي صوتك.. لم أسمع.. إياكِ أن تقولي أخشى أن يسمعني أحد.. المفترض ألا يكون أحد في المنزل كما اتفقنا.

– نعم نعم.. أمي اصطحبت إخوتي لزيارة جدتي وسيبيتون هناك، وأبي مسافر.. تعرفين ذلك!

– تمام.. تمام.. أمي قد تسمعني لأنها لم تنم بعد.. سأتصل بك من هاتف المطبخ بعد قليل/ سلام!

– سلام «فصلت سلك الهاتف، ودمدمت بعصبية: تنقصينني أنت!».

قامت تقلب الجهاز بين يديها الصغيرتين، وهي لم تعرف بعدُ ما النتيجة التي سينطق بها هذا الإلكتروني المدور، وإلى أي قرارٍ سيقودها، وما الشكل الذي يجب أن تتخيله لحياتها، أفكارها، معنوياتها، ونظرتها للحياة في حال كانت النتيجة سلبية، فلم يعطها الجهاز النتيجة التي تتأمل أخذها.

من حسن حظها – كما تعتقد – أنها تعرفت لتلك الصديقة التي اشترت لها هذا الجهاز وتتذكر مشفقة على رفيقاتها.. فقبل شهورٍ ليست بالكثيرة كانت كل واحدة من البنات في مثل سنها تحمل بين يديها زهرة – بيضاء مرتخٍ على بياضها ظل أصفر اللون بارتياح واضح؛ من تلك الزهرات التي تنمو عشوائيا بين الحشائش في ساحة المدرسة – تنتف بتلاتها واحدة تلو الأخرى وتتمتم بصوت غير مسموع، تلقائيا يعرف من يراها أنها تفعل فعلة البنات الشهيرة: «يحبني/ لا يحبني/ يحبني/ لا يحبني»... وهكذا حتى ترسو تلك الخرافة على قرار تطلقه البتلة الأخيرة للفتاة، لتبني المسكينة حزنها أو فرحها عليه! – بل ربما لم تختف تلك العادة بعد – ويستمر لديها مسلسلُ الإشفاق على البنات

اللاتي ليس لديهن ثمن هذا الجهاز الذي قد يصل إلى ثلاثين «شيكل»![5]

أيضا.. وفي تصرفاتٍ سرية عن الأهل وعيون المعلمات لا تكاد تخلو الأوراق الأخيرة في دفتر أية فتاة مراهقة من تشطيبات بالقلم لاسمين مكتوبين أحدهما لفتاة والآخر لشابٍ، تقوم الواحدة منهن بشطب الأحرف المتشابهة في الاسمين، ثمّ تحسبُ حسبة غريبة – متعارفا عليها بين جمهور المراهقات – للأحرف المتبقية فتحدد مصير علاقتها بفارس أحلامها، الذي قد يصبح بعد تلك الحماقة سبب آلامها!

«همممم» ثم تبدأ صاحبتنا بفكفكة رموز هذا الجهاز فتفهم أنها يجب أن تضغط على الأحرف وتكتب الاسمين بدقة كبيرة بينهما بالترتيب (مسافة حرف ثم علامة زائد (+) ثم مسافة حرف أخرى)، ثم تضغط زر الإرسال وتنتظرُ مدة ثلاثين ثانية أو أكثر بقليل حتى يأتيها الرد الصارخ تأثيره!

وضعت الجهاز على طرف سريرها، وفكرت: حتى هذه اللحظة لم تعرف بعد لماذا كل تعليمات التشديد تلك – حال الاستعمال – والعمل في العتمة واشتراط خلو المنزل، ثم تفكر بينها وبين نفسها في حالة تشبه

[5] الشيكل أو الشيقل هو العملة – الإسرائيلية- المتداولة في قطاع غزة (مسرح أحداث هذه القصة) ويعادل ربع دولار تقريبا.

الصحو بعد غفلة أن صديقتها كانت تبالغ حين أخبرتها أنه لا جدوى من استعماله في حال وجود أي ضوء!

«ما الذي جعلني أسمع نصائح تلك (العبيطة) فأهدر مصروفي، ثم أتجرأ على إفشاء سري الكبير لجهاز متخلف، وأضيع على نفسي سهرة كانت ستكون رائعة مع بنات خالاتي وأخوالي في بيت الجدة، وأخيراً أشعر أن الدنيا انتهت عند هذا الاختبار الغبي إذا أخبرني بأنني لا يمكن أن أستمر في حبي الغالي» تدمدم بيأس وغضب، بعد أن استسلمت تماما لفكرة أن الجهاز تالف فعلا، أو أن صديقتها الثرثارة نجحت في خداعها.

كل تلك الأفكار السلبية عنّت على بالها، في أقل من عشرين ثانية، لكنه التسرع وربما اللهفة لمعرفة النتيجة، حملت الجهاز وإذ بشاشته تشع بألوان خافتة جداً، ثم ينبعث منه صوت رجل كأنه «روبوت» يتحدث.

الآن فقط وصلها تفسير كل التساؤلات التي راودتها – لكن حنقها لم يخف أبداً! – فالجهاز يصدر صوتا كفيلا بأن يفضحها لدى الحارة كاملة وليس فقط بين إخوتها وأمها، وإضاءته الخافتة لا يمكنها أن تراها إلا في الظلام الشديد..

تـضغط بعـصبية ضـغطات متكـررة علـى زر تحـديث الإرسـال في الهاتف ثم: «ينقصني الآن انقطـاع الحـرارة عـن الهـاتف» تلفظهـا بقهـر واضح، وتتوعد لرفيقتها أن تريهـا (الوجـه الآخـر) عقابـا لهـا.. وترمـي بالجهاز إلى زاوية الغرفة بعـصبية فيرتـد قريبـا منهـا دون أن يتـضرر.. تخرج من غرفتها، متوجهة إلى المطبخ وتجلبُ «المدق» فتثبت الجهاز على أرض الغرفة وتطحنه.. لتخرق قطعة من بلاستيك الجهاز المحطم سجادة غرفتها.. فتشعر بالارتباك والخطر!

عادت تفكر من جديد: ماذا لو عرفت أمي بـأمر هـذا الجهـاز هـل ستثق بي مرة أخرى! أية خطيئة أفعلها حين أبوح بسري العظيم وحـبي الكبير لجهاز بلاستيكي خـرف.. متفاجئـة مـن نفسي أنـا؟ هـل تراني التقطتُ عدوى الغباء من رفيقتي العبيطة، أم ماذا! أووه يااا.. أكـاد أُشـلُ من التفكير!

لم تأبه للنتيجة التي ظهرت قـدر مـا أحـست بالإحبـاط مـن تلـك الحماقة/ بل تلك الخطيئة التي تفعلها وهي لا تـزال ابنـة الأربـع عـشرة سنة.. «الحب ليس خطيئة» تعترف موجهة حديثها لضميرها الـذي بـدأ «يتفلسف» كعادته؛ وتسترسل في توبيخه:

اسمع أيها الضمير الجامد!

أن أحب.. يعني أنني أتمتعُ بقلبٍ حـيّ! ثـم لمـاذا لا أحـب؟ لمـاذا أعاقب نفسي.. سأحبُّ ولو مـن طـرفٍ واحـد.. حتـى وإن كـان الحـب مـن طرفٍ واحد أشبه بلعنة، يكفيني أن الحب في حد ذاتـه جميـل.. والحـب لأجل الحب عظمة لا تقدر! الخطيئة الحقيقية يا هذا هي أن أصف الحـب بالخطيئة! ثم.. إنه ليس وقتك أبداً أيها الضمير الفيلسوف!

إن كنتَ حقا تعمل بكفاءة وإخلاص فأخبرني: لماذا نكـون قـادرين على كره من نريد في الهواء الطلق، بل وسبّ من نريد علنا أحيانـا، لكننـا نتلعثم ونكون كالحمقى وربما أكثر أمام جوابٍ حائرٍ لسؤال أكثـر حيـرة، لماذا نتلعثم ونرتبك ونكتم وربما لا نبوح أبداً إذا كان ما نشعر بـه حقيقيـا ومؤرقا!

دائما خارج ما هو حقيقي نتحدث بطلاقة، ثم عنـدما نقـترب مـن تلـك الجمـرة تتيـبس أصـابعنا وندمـدم: «إنــه ورطـة».. الأدهـى – أيهـا الضمير الخـرف – أننـا نـزداد خوفـا منـه كلمـا تقـدمت تجربتنـا وازداد وعينا، بل والأخطر من ذلك أننـا لا نجـرؤ حتـى أن نمـسَّ كلمـة «أحبـك» وكأنها قنبلة أو فتيل قابل للاشتعال؛ إن نحن شعرنا فعلا بالحب ناحيـة شـخصٍ مـا.. نـدثر هـذا الحـبَّ ونخفيـه خـوف أن تـرتطم بـه الكلمـات وتنفجر! وكلما تورطنا أكثر.. ازداد سلوكنا سرية.

أأزيدك..

كلنا في الجرمِ سواء، لا المفهوم تطوّر لدى آدم، ولا السلوك تغير لدى حواء، فمتى تتعافى عقولنا ليفارقها الخوف من الخطيئة الأولى دائما والأخيرة؟

مممم... ليس لديك جواب؟ الأمر لا بيدك ولا يدي.. فكفَّ عن هرائك أيها الضمير الغائب.. واستمتع بما قالته امرأة رشيدة:

«ليس للمحب وحبيبه بين وإنما هو نطق عن شوق.. ووصف عن ذوق.. فمن ذاق عرف.. ومن وصف فما اتصف! وكيف تصف شيئاً أنت في حضرته غائب.. وبوجوده ذائب.. وبشهوده ذاهب.. وبصحوك منه سكران.. وبفراغك فيه ملآن.. وبسرورك له ولهان.. فما ثم إلا دهشة دائمة.. وحيرة لأزمة.. وقلوب هائمة.. وأسرار كاتمة.. وأجساد من السقم غير سالمة.. فالمحبة بدولتها الصارمة.. في القلوب حاكمة!»[6]

وتزفرُ صاحبتنا بيأسٍ.. ثم تستسلمُ لقهرها وتلف ضلوعها بيديها وتتكومُ في سريرها بعد أن تشعل «النواسة»[7] وتتمنى أن تنام بسلام تلك

---

[6] رابعة العدوية حين سئلت عن وصف المحبة وغنت لحبيبها أبياتها الشهيرة: أحبك حبين حب الهوى... الخ.

[7] التسمية العامية – في غزة - للمصباح الذي يمنح ضوءاً خافتاً.

الليلة، وما إن تلمح سلك الهاتف المقطوع وتتذكر أنها فعلتها قبل قليل، تضحك بهستيرية وتقول: «لقد أراد الله أن يرحمك من عصبيتي أيتها الحمقاء الثرثارة»

الأربعاء || 30 يوليو 2008م

أنثى الغرور

بين حين وحين.. تتسلقُ لعقلها خلية «شيطانة» كانت ولا تزال تقطن بداخلها، خلية تصارعُ الموتَ حين يسرقُ الموت أخواتها، تدغدغُ بثورا تنمو بين ثنايا مخيخها، تتناغمان فلا تكادُ تمرُّ دقيقة إلا وينتفضُ رأسُها، يلاحظه من يلاحظهُ، يراه من يراهُ، لكنَّ لذة احتكاكِ الخلية «الشيطانة» بالبثورِ المختبئة.. لا يشعرُ بها إلاها، وأنى لمن يستغربُ فنون الانطلاق، أن يشعرَ اللذة الأخاذة!

صباحٌ مختلفٌ ورغبة عنيفة في المغامرة، ، !

ترتدي معطفَا يخفي أي ملامح يمكنُ أن تشير إليها، وتنطلقُ لمارسة طقوسها وكأنَّ لافتة نصَّبتْ نفسها فوقَ رأسها وشدَّت بتلابيبَ من يراها لتخبرَه: أنها فقط مليكة النظرات هنا، لا حقَّ لأحدهم أن يسرحَ مع غيرها، بل إنهُ لن يستطيعَ أن يسرحَ بعيدا، فقد يفوتهُ الكثير!

هكذا هي طالما تمنيت أن تخبرَ الجميع: أنا عالمٌ آخر.. دنيا أخرى.. أحداثٌ مدهشة، أنا الغرابة المتزجة بنفحاتِ الجمال، والجمالُ المستأثِرُ بالألباب، لدي زهورٌ لم تروها سابقا، وقلوبٌ لم تشعروا بها أبداً، وحياة لن تجدوها أنى كان، حتى القمرُ لدي مختلف..

فهذه أنا!

إعلانها الجريء إياه: أن أيها العاديون، أعيروني أذنَ كبريائكم للحظة، أعطوني انتباهة خاطفة، أراكم بعدها ستصبحون من مدمني ولوجِ عالمي المجنون، وبعدها سيكون الانتصار للعاقل فالعاقل من سيرضى أن يكون مجنونا.

وبين نفسِها وهيَ!

تقفُ حينا أمام المرآة تُحادثُ تلكَ الإنسانة التي تسكنُها، فتوقظُ أحلاما طالتْ إغفاءتُها على زندِ إحساسها لما استرقت تلكَ الإغفاءة في ذاتِ خوفٍ دفعها للهروبِ من غدرِ الأيام منذ زمنٍ طويل، وفي مرة أخرى تنطوي بين دفتي سريرها تتكلمُ مع الشمسِ الغافية بداخلها، تتحدى: لا.. لن تنطفئي.. ستظلين وإلى الأبد!

كان تحديها للشمسِ محضَ همسة؛ لكنَّ له فرقعة القنبلة.

تلمح، ما إحداهنَّ وتخفي ضحكتها عنها كأنها تتمتم بينها وبين نفسها «مجنونة» وتديرُ ظهرها لتخرج، وهي.. تتركها وشأنها على الرغم من أنها قد سمعتها.. هي أكبر من أن تناقشَ غيرة الجميعِ منها.. ثم إن ذلك ليسَ ما يمكنها بمعيته أن تزرعَ بداخلهنَّ أفكارها.

وهي – بالمناسبة – لن تفكرَ في تلك اللحظة كثيرا فبينها وبين الاستمتاعِ بلذة الاحتكاكِ العنيف ثلاث لحظات، لكلٍّ منهنَّ حسبت ألفَ مسألة، وعلى باب كلٍّ منهن علقت أمنية واحدة، واختلط أملُها بلهفة الوصول، وأقنعتْ نفسها بأنها لا تزالُ تعيشُ الحلمَ الجميلَ الذي طالما راودها، وانتقلتْ لجولة هي أشبه بالحلمِ في عالمٍ لا يجيدُ إلا الصخبَ الذي لا معنى له!

طقوسٌ متفردة التفاصيل،

ولحظاتٌ استثنائية؛

هكذا هو عالمها!

حتى الرجل الوحيد الذي أحضرَ إلى منصة الاختبار في قالب النرجس – خاصتها – شيئاً من الضفة الأخرى للجنس البشري.. كان يناديها دوما بـ«رائعة الغرور» ومراتٍ كان يستبدل اسمها في رسائله

إليها بكلمة: «عنقائي» وكانت – دون خجلٍ – تلتمسُ المزيد من كل من يقابلها فهي في نظر نفسها – على الأقل – تستحق أجمل وأجلَّ الألقاب التي يمكن أن تنادى بها امرأة. وكانت قد شبعَت – بل ملّت – من مناداتهم إياها بـ«حلوتي، أميرتي، جميلتي، وردتي، أغنيتي، فلتي ورائعتي... وغيرها!» أقول إنها شبعت وأنا أعي – حقّ الوعي – أن الألقاب التي ينادي الجميع بها محبوباتهم لا تقنعها؛ لأنها لا تعتبر نفسها أنثى عادية؛ على أنها لا تسلمُ أنها معشوقة أحد!

مرة جمعها به مقهى أدبيٌّ، وكانت أول مرة تشعر فيها أنها يمكنُ – وبرضى تام – أن تتبادل الحديث الحميم مع رجل! أو بالأصح.. أن تسمح لأحدهم (الرجال) أن يتغزل بها في حضرتها!

وبينما كانت تثرثرُ – لتسحب الحديث إلى مربع آخر – في سيرة كاتب يشدها كثيرا وتفضلُ القراءة له بل والإبحار مع نصوصه التي تحفظُ بعضها وتقتبسُ الكثير منها في أحاديثها، كان هو يستمع/ يستمتعُ.. يبتسم/ ولا يبتسم.

استفزّها رد فعله اللامبالي تلك لكنها خمنت أنها ربما تكون الغيرة، (الغيرة من جديد) تخمّنُ أن رجلا يمكنُ أن يصابَ بها لمجرد أن أنثى الغرور تذكرُ اسمَ غيره خلال حديثها معه، أراحها هذا التخمين

قليلا. ورطّب جفاف عصبيتها، تصنّعت استعادة هدوئها لتستطيع إكمال حديثها ولو بهدوء مصطنع، حتى لا يشعر الرجل قبالتها بما استفزها، حدثته عن متابعتها للموقع الشخصي لكاتبها المفضّل، وأمنياتها عن مقابلته ولو لمرة واحدة، لكنه كان يُغير الحديث كما يريدُ هو وحسب.. إنها عجرفة الرجال مرة أخرى! ولأنها تكرهها.. آثرت أن تلجأ للسكوت.

أطال النظرَ في عينيها ثم اقتنص نظرة خاطفةٍ لسوارها الرقيق جداً – أو هكذا ظنت على الأقل – لتجده يصمت بعدها ويحكُّ ذقنه بسبابته اليسرى بين وقت وآخر.. مالَ عليه أحد الحضور وسأله: «ألا ترى أن هذا النص أفضل من سابقه؟ أعتقد أن ماسة بدأت توظف الرمز في نصوصها بشكلٍ أكبر» ليهزَّ رأسه بالإيجاب ويسترق نظرة نحوها من طرف إطار نظارته، كادت تراهنُ أنه لا يعرف من تكون ماسة هذه.. لكنها فضّلت الاستمرار بمتابعة تلك «الماسة!» غير أنها وجدت نفسها تفكر في شكله وتصرفاته بطريقة لم تستطع أن تزيحها عن تفكيرها. يبدو أنه يكبرها بعشرين سنة على الأقل، حنطي البشرة، عمق عينيه يكاد يغرقها، وكان الشيب المتوزع في شعر رأسه ولحيته يُشعرها بوهجٍ خاصٍ يحيط وجههُ الذي أخذت تحملقُ فيه كأنه قِبلة قلبها، تشردُ فيه.. وتعود من شرودها

لتهرب منه ولو بالتفاتة عينها.. بين محطتي الشرود والهروب نودي على اسمها؛ وإذ بمسئول المقهى يدعوها لتلقي قصيدة في تلك الأمسية، وكالعادة، كانت جاهزة لاعتلاء المنصة، غير أنها في هذه المرة، سيتركها بعض إحساسها لتعتليها من دونه.. لم يسمح لها غرورها أن تصارح الجمهور بأن شيئاً ما — منها — يبدو مأخوذاً الليلة بأحدٍ ما!

لكن إحساسها تلاعبَ بتركيزها وهي تنظرُ في الورقة التي بين يديها وما إن بدأت:

مسفوحٌ دمُ هذي اللوزة

عينان وحزنٌ وجداولْ

كان السطر الثاني من قصيدتها أنثى الغرور تلك يبدأ بكلمة برق؛ لكن برق العين الذي لمع قربَ الطاولة التي كانت تجلسُ عليها بدا أقوى وأقدر على نهش باقي القصيدة ليجعلها تلقي الورق جانبا بعد أن هزمها إحساسها ليتصارع مع غرورها علنا وأمام الجمهور!

بغضبٍ استرسلت: برق يخطف بصر الشعور، يجتذبني لأعد سطورا مرصوصة في هامش قلبٍ، على طاولة في المقهى، أو شرفة — في الحياة — ما! ألتقط بخفة تلك السطور وأرميها فتنهشني نظرة من

يشاكسون الفطرة، يكادُ يلتهمني أحدهم بعينيه، ويلوكني بأضراس عقله - وربما أضراس نزوته كذلك - لأكون المائدة القادمة، الجاهزة والمناسبة جداً للعرض أمام شغب حروفه المتناثرة على ثرى الإفلاس.

عيناها تبحثان بين الحضور ففي لحظة انخفضت عيناه واختفتا، لا بد أنه يسجلُ ملاحظة ما فقد فهمت أنه - ربما - ناقد، غضبها وبحثها الواضح يفهمهُ الجمهور - عادة - على أنه انفعال طبيعي للشاعرِ، وانسجامٌ مع حالة شعورية يسترجعها مع أجواء كتابة نصٍ ما.. بينما برقُ عينيه (البعيد) الذي عاد ليهزها من جديدٍ ثم لينزل - كأنه يسخر منها - إلى فمه لما ابتسم/ جعلها تقرر: إنه الوحيد الذي يفهمها بين الحضور في المقهى وهذا جيد لتصل رسالتها - تلك - إليه ومهم جداً لـ«برستيجها» بين جمهورها، وبينما كان الجميع يصفقون، كان هو يحشو بطاقته الشخصية بين صفحات كتابٍ يجاور حقيبة اليد خاصتها.

مرتٍ بقية اللحظات بصمتٍ لم يقولا شيئاً خلالها، ولم يسمعا شيئاً مما قيل.. هي يكاد يفضحها الشرود، ولم يمل هو من الحملقة المتواصلة في وجهها وكفيها، وقبل أن يستعد الجمهور للانطلاق حال اختتام الأمسية كانت قد وقفت وعدلت ملابسها وحملت حقيبتها والكتاب مستعدة للانطلاق، لكنه استوقفها قائلا: لحظة من فضلك.. لعلكِ

أنثى الغرور الأليق به لكنك قبل الألقاب أنثى، عجين مشاعر، فستقية هي نكهة ريقك، وبحر هو شرودك الذي فضح الكثير.. لا تفكري في حملقتي كثيرا فها إني أصارحكِ: أنا مأخوذ بكِ.. على غرورك!

صوت احتكاك أسنانها أصاب جسدها بالقشعريرة، لكنها أخفتْ كل غيظها وحقيقةِ مشاعرها خلف ملامح وجهها التي تبدو أكثر جمودا من صنمٍ بعمر تاريخ البشر، ولم تسمح بأن يظهر على شفتيها إلا شيء يشبه الابتسامة الصفراء، والإيماءة الكاذبة، أطلقتها كمجاملة باهتة.. وانطلقت!

في طريق عودتها – تعودت أن تشغل وقتها بالقراءة خلال الساعات التي تقضيها في العربة ما بين انتظار وسفر – اليومَ أخذت تتصفحُ كتابها، لتجد بطاقته وبعضَ كلمات مكتوبات بقلمٍ أسود وبخط يده، تقلّبُ البطاقة ويفاجئها الاسم الذي طويلا كانت تذهلها شخصيةَ صاحبه، نصوصه، تجاربه، وحتى حياته، ثم يسابق فضولُها ضرباتِ قلبها ويعدو بعينيها لتنظر ناحية الكلمات المكتوبة فتقرأ بصمتٍ ملتهب: «يذيبُ الرجلَ في جمالِ المرأة ثلاثة: عيناها، كفاها، ورائحتها.. أنتِ جعلتني أتلاشى!» لم يسمح لها غرورها بشرودٍ طويلٍ، ولو حتى مع الرجلِ الذي رسمتهُ طوقَ حلمٍ في إحدى قصائدها.

غريبة هي ربما.. لكنها حين ترتبطُ الأحلام برجلٍ، يبدأ مسلسلُ القصص التي تعرفها عرضهُ المؤلم، لقد تخيلت نفسها في تلك اللحظة فراشة مشنوقة على أعتاب بابِ نسرٍ لاه لا يأبهُ لتوسلاتها، ثم إنها أزلا كانت ولا تزال تؤمنُ بأنَّ المغامرة هي الطريقُ الوحيدُ لتصبحَ تلكَ الشمسَ الدافئة التي تطلُّ كلَّ صباحٍ لتوزعُ الأمنياتِ في عُلبِ الورد.

وهذا الرجل الأديب الذي حصرها في جسدٍ.. وبعثر كل ما يفلسفهُ من آراء في كتاباته، سرح في عينيها بينما كانت ماسة تتحدث فعلا.. وهي التي طالما تغنى بمستواها في قراءاته النقدية، [هذا الرجل] تراه اليوم أعور الأدب/ ازدواجي الصورة والتفكير، يرى بالعين المفتوحة حين يشتهي، ويستخدم المغلقة حين يكتب، تماما/ كديكتاتور يذبح ضحيته بقلبٍ ويدٍ سوداوين فيقتل حلمها الأبيضِ ثمَ يشارك في تشييع الجنازة بنظارة وربطة عنقٍ سوداوين كذلك، وربما يمسح بمنديل أبيض ما قد يظنه الراءون دمع حزن أو ألم/ ليخدع كاميرا تصوير بإنسانية كاذبة، بينما الغدر المتلبسُ روحه يرقص بكل قذارة النشوة!

هكذا تخيلت أعور الأدب – هذا – يكتب بأنامل ملاك ويخفي تحت ثياب الأكابر ضبعا نتنا لم تخفِ رائحته العطور الباريسية/ الكلمات المرهفة.. كانت حواسها تراه، تدركه، بل تكادُ تجزم أنها رأت

أنيابه المتوحشة ولعابه النتن يقطر من بين فكيه يرجو أن يتمكن من أنثاها المغرورة، قليلٌ من التركيز فقط، بينها وبين أن تصدق أنها رأت ذيله القصير فعلا، بل أخذها فكرها المجنون إلى التساؤل: ماذا لو أنه ابتلع جزءا من عظمها – ولو افتراضا – تخيلت أن هذا الأعور حينها سيتقطّعُ صراخا حتى تلفظ أمعاؤه النتنة عظامَها فيكون المخاضُ، ويُولد عواؤه/ كتابه القادم، فيهلل الإعلامُ ويتهافتُ المعجبون.

لكم تمنت لو أنه كان أعمى حتى لا تفاجئها الحقيقة.. سرحَ خيالها بها لتفكر/ لو أنها شوهت وجهه بينما كان الجميع يصفق لاسمه! أو لو أنها على الأقل دلقت القهوة على ملابسه الأنيقة!

كومة من الأسئلة – بعدد ما نبضت روحها باسمه، وما تهدجت أنفاسها مع إحساسه، وما آمنت به من فلسفاته، وما حفظته من كذباته – تتنطط – كومة الأسئلة – أمام عينيها كعفاريت الجحيم/ لماذا إذن يتحدث عن الألم والجوع والبؤس والتشرد؟ لماذا يرتدي المبادئ والشرف والقيم والفلسفة؟ لماذا قدّم الحقيقة الصادمة ميراثا لها بالذات؟ ثمّ لماذا بدأ هذا الرجل يقصُّ عليها قصص الحبّ من أول لقاء؟ حتى قبل أن تتحدث عن علاقتها بما يكتبه!

تناولت هاتفها النقال وكتبت رسالة وجهتها إلى الرقم المدون على

البطاقة: «يشرفني يا سيدي أن نكون قد التقينا فعلا، بعد قصة عشقٍ غريبة بين خيالي ونصوصك الفارهة، لم تذهلني المصادفة غير أني / أذيلُ شكرا لها / لكنني أصارحك، لستُ أحب المصادفاتِ.. فقد تعودت أن أصنع ما يفاجئني بنفسي، لأضمنَ دهشة تليق بي...تمنيتُ يا سيدي أن انفصام حلمك والطقوس لا يظهران علنا.. أنت لا تحلمُ بأكثر من جسدٍ تراوغه بالكلماتِ حتى تمتلك فيه زاوية، بينما عليك أن تفهم شيئاً: لن أكون قصتكَ التالية/ فطموحي أكبرُ بكثيرٍ من رجل!»

الأربعاء || 29 فبراير 2012م

وافدٌ من جهنم

لم تبدأ بمحاسبة نفسها على نقض العهد المقدس بينها وبين روح من تحبُّ، ولم تشتعل في روحها حلقة توجع سرّها الخاص جداً، قبل أن يؤلمها أنينه كطفلٍ فقد ظلا كان يدانيه، إلا أن جلد مساحة مدورة في ظاهر كفها الأيسر قد تقشر ونزف مكانه دما — وحتى لو أن المساحة فعلا صغيرة — لكنها تعرضت في لحظة لدعكٍ قوي بإبهام اليد اليمنى، ولأنها بالطبع لم تنتبه لا للدم ولا للسعات شعيرات الإحساس، إلا بعد أن حضر عقلها من شروده الأخير، والمبهم كما تتخيله.

انتقلت نظرتها إلى المكان الدامي في كف يدها، إلا أن ما استفزها لم يكن الجرح الذي أحدثه الفرك مع الحرارة الشديدة حال الشرود والتوتر، بل لم تقاوم عينها النظرة الفارّة إلى عقب السيجارة الذي أغاظها به «الوافدُ» حين فركه في طبق الزينة على المنضدة الصغيرة، وتذكرت أنها

لم تحزن حينها على الطبق، ولا حتى على الساعة الكاملة أو بالأصح على (الساعة إلا سبع ثوانٍ) التي قضتها برفقته؛ لأنها تعرفت عن قرب إلى هدية صريحة من هدايا إبليس!

هل كان للشيطان يدٌ فعلا، في ترتيب الموعدِ، وجذب انتباهها إلى العنوان الجميل – بل الجميـــــل – والمغري... الذي كان الوافدُ قابعا تحته؟ وهل كانت الجاذبية إليه أقوى من لذة مداعبة جذور سر الحب العظيم لجدران قلبها؟ أين الرجلُ القصيدة من ثنايا هذا العنوان الواسع وإن كان جذابا أو حتى أين قافية القصيدة ووزنها فيه؟ لماذا سرق الظرفُ منها الفرصة التي كانت تعتبرها الأخيرة؟

استفهاماتٌ كثيرة يستحق كل منها وجبة كبيرة من العقاب توقعها على نفسها، لتمرد الجحود أولا وسيطرته عليها، ولدفع الثمن الباهظ جداً لعيون قصيدتها الرجل، التي رسمتها منذ زمن!

هي تعرف جيدا أن إجابة أسئلتها لا بد أن تكون حرقة تغرزها كسكين في جميع أنحاء ذاكرتها التي تظاهرت بنسيان كل لحظاتها الخاصة، وجحدت هالة الحبّ المصبوبة من سقف الذاكرة تغذي فيها حب الحياة.

أوَلم تعقدي العزم أيتها الذاكرة «الكهل» على أن تدمني الانتظار

لمجهولٍ لم يعدك أن يأتي في زمنٍ ما! أوَلم تتفقي مع الروح الطفلة على منحها الحلوى في كلِ وقفة إجلال لعيد المولد النديّ! ها أنتِ تتعثرين وحيدة وتعثري معك كلّ ما يسعدُ براءتها ويفرحها، ثم ها أنتِ تسرقين بهجة رقصاتها اللاتي خبأتهن لقادم الأعراس، وأخيراً تقعدين على كومة دمارٍ مبللة بدموع الصغيرة.. ودموعي!

أي حوارٍ ملعون هذا، لم أتخيل يوما أن أصبه جاما يحمل احتراق قلبٍ منصهر وينسكبُ كالسياط على مسامع الحضور، أي شيءٍ يمكنه أن يصف الذهول الذي غشّاها حين اكتشفت أنها هي الضحية رقم (واحد) لأول وافدٍ يصرُّ على دحض نظريتها التي جاهدت قبلا لأجل إقناع الجميع بها.

وعلى الرغم من أنها كانت تعرف أن عُلب الهدايا المغلفة بشكلٍ أنيق، يمكنها أن تحوي بداخلها بعض العقارب، أو الجرذان حتى، أو أسنان التمساح (اللؤلؤية) أو حتى حفنة هواء ملوث، فليس شرطا أن تحمل العلبة الأنيقة هدية أكثر أناقة، بل إن الهدايا الأنيقة جداً لا تحتاج لتزيين واجهة حضورها بعلبة فاخرة.. إلا أنها انتظرت الهدية التي حُذفت من جهنم – كما تدَّعي – إلى محيط عالمها، انتظرتها لتنفتح بنفسها حتى تكتشف ما بداخلها.. وقد خاطرت بالاقتراب على الرغم من أن أحدا يهمه أمرها كان قد حذرها قبل أن يقع ما حذرها من خطره!

هذا الوافد لم يمتلك شيئاً بعدُ مما لديها لكنه تصرف وكأنه يملك كل شيء! لقد نجح فقط في تنبيهها إلى أنها تنحدر دون انتباه إلى وادٍ سيشطر عمرها قسمين، ويجعلها تتلعثم في قراءة أقصر سطور البلاغة، بل سيحرمها لذة الهيام في أرجاء عالمها الذي سيدمره قربه، ستتلاشى الأشياء الجميلة، وتختفي ابتسامة ثغرها الساخرة، ربما إلى أمد بعيد!

في الحلم طاردتها فكرة أن هذا الوافد سيحملها على ظهر جوادٍ أصيلٍ، إلى عالم مزهرٍ بالأمل، إلا أنها كانت تقع عن ظهر الجوادِ كلما اقترب الجواد من منعطفٍ، وهو لم يمسك بيدها، حتى إنها كانت تتذكر من الحلم وجوه من كانوا ينقذونها ليعيدوها إلى ظهر الجوادِ! أي فارسٍ هذا!

اتفقت مع كل مستشاريها الحاضرين والواعين في لحظة الشرود المتأخرة! على أنها تستحق العقاب، كيف سيكون هذا العقاب؟ ستترك للسر الأوثق الذي خانته أن يوقع بها العقاب الذي تستحق.. لم تستطع هي أن تفلت من قبضة جلادها الواقف قدامها، وهو يسرد قائمة الخطايا ويزيد أنينها ثم يرمقها بنظرة ازدراء ويكمل السرد، تصرخ: هات بقية بنود قانون العقاب الذي سيقع عليّ.. وإلا فاصمت لأنني لا أطيق سماع المزيد!

هيهات، هيهات..

وهـل فكـرتِ أن هجـرة الواقـع المـؤلم، سـتكون سـهلة؟ أم هـل استسلمتِ أخيراً لفكرة قد تورثكِ المهانة؟ لم تعرف نفسها انهزامية منذ بدأت تشق طريقها، لكـن قلبهـا الـذي لم يـستطع هـضم حـوادث حياتهـا الأخيرة، أرغمها على التنازل عن عدة أمنياتٍ لفتح نافـذة واحـدة.. هـي تستحق العقاب كما اتفق، لكنهـا لا تحتـاج أن تـسامح نفـسها، بقـدر مـا تتمنى أن يـسامحها سـرها الأكـبر، وحبهـا الأعظـم، قـصيدتها الرجـل، وروح الطفلة الحالمة، فهي قـد تعـودت علـى عـذابات الـضمير، لكنهـا لا تريد أن تورثها لأغلى الأشياء في حياتها التي كانت سترميها بكل بساطة في قبضة البؤس!

لم يكن المظهر الوحيد للأناقـة الـتي تحلـى بهـا الوافـدُ الغريـب، متمثلا في الشكل، الوسامة، بل تعدى إلى ذوقيات مثاليـة في ثلـث الـساعة الأول، ثم ما لبث أن انقلب وحشا شرسا لا تبـدو الأناقـة إحـدى صـفاته، خاصة بعد البريق الذي لمحته السكينة علـى طـرف نابـه الأيمـن، حـين أشعل السيجارة، وامتصَّ سمَّها بلذة واضحة، رافقتها نظرة لم ترق لها.

نعـم.. الآن عرفـتْ لمـاذا أرغمتهـا نظرتهـا علـى التقـاط صـورة السيجارة، قبل صورة النزف في محيط الإصابة البشعة!

هل ستبقى الندبة في ظاهر كفها الأيـسر إلى زمـنٍ مقبـل.. تـذكرها

بالوافد الفظّ، بتراب حذائه الذي مسحه في أحد أطراف السجادة الأنيقة، بأسئلته المستفزة، بطلباته الدنيئة، والمفردات الناشزة التي كالها على مسمعها النقي طوال ساعة، أو الأسماء الشاذة التي نعتها بها!

شكله.. لم يعد يحضرها الآن، على الرغم من أنه لم يمر بعد على الحدث أكثر من أربع وعشرين ساعة! ولا صوته الراجي الذي أيقظ بداخلها لاعج القرف والاشمئزاز.. هي أغلقت الصفحة إذ لم تتمكن من قطعها تماما! بقي فقط أن تمسح جبينها بشاشة ناعمة مبلولة بماء الورد الممتزج بلقاحاته، وتبتلع قرص نسيان مهدئ، وتعمل على إخفاء الندبة ولو كلفها ذلك استبدال ذاكرتها التي تبدو لها ككهل ضيَّع عكازه!

الأربعاء || 16 مارس 2011م

شيءٌ لا يموت

مع كل رسالة كانت تجددُ حزنها وأشياءها التي يراها الكل قديمة..

بعذرية اللقاء الأول، وعفوية الفرحة البكر.. تراها متجددة/ متوالدة.. وكأنها تريد أن تقول للحب: أنك أحق شيءٍ بالخلود، أعظم وصفة للإنعاش.. ولو كنتَ مجرد افتراض!

على الرغم من أنها تعرف تماما أنه مات قبل سبع سنواتٍ.. واستمرتٍ بمراسلته على نفس العنوان، وبعادتها إياها مع رسالة المفتتح القديمة: إنه اليوم رقم (كذا) على ميلاد حبنا، ها قد مرت (...) ثانية ودقيقة وساعة منذ أنجب الحب قلبينا/ لقد تغيرت الرسالة: إنه اليوم رقم (...) لانقباض روحي وفقدها بفقدك! خطابها تغيّر.. لكن مشاعرها لم تبرد ولو لثانية!

غير خطاب التوقيت الافتتاحي؛ لم يتغير شيءٌ من عناصر المحتوى أبداً.. نزيف الشاعر منهمر ساخن، تفاصيل حياتها مسرودة بدقة، شكواها من فضول الروح والجسد - أحيانا - مستمر، وحتى ندوب الزمن التي لن تفهمها أبداً! كانت تفعل كل ذلك لأنها تخشى مجهولا.. وتحاولُ ألا تخرج قلبها من النقاهة التي يبدو أنها لن تنتهي إلا بتوقفه عن النبض، أشد ما شعرت أمامه بالخوف هو أن يقتحم حياتها حب جديد، والحب في فترات النقاهة يشبه الخطايا، التي يعاقب عليها الزمن! ولا ينتهي إلى نتيجة محمودة!

قائمة التواريخ الطويلة كانت تشعرها بالضجيج.. حتى مواقيتُ إرسال الرسائل التي كانت تربطها بالولادات العظيمة - في نظرها - لم تتغير أبداً، تعودت أن ترسل سبع رسائل في كل سنة موزعة على أهم سبع ولادات: أربع رسائل واحدة في مفتتح كل فصل سنويّ، في يوم ميلاده ويوم ميلادها رسالتان، وفي عيد مولد حبهما رسالة، غير أن وفاته أضافت تاريخا جديدا وهو مولدُ حزنها المهيب لتصبح مواقيتها الموسومة ثمانية!

كانت قد أرسلت بعد وفاته أكثر من أربعين رسالة، ليوقفها المرضُ بعدها عن الكتابة، تهمسُ للسماءِ برسائلها وتتخيلُ أن الريحَ والضوءَ يجيبانها، ظلّ ينخر السقم جسدها.. لا توصيف لدائها إلا

الحنين، ولا وصفة لمداواتها إلا اللقاء وإن جاء في غفوة موت!

في مفتتح ربيع العام الثامن كانت تتنزهُ قربَ ساقية الماءِ – التي تبعدُ عن بيتها مائتي متر فقط – وتراقبُ عامل الساقية شاردة.. الماء يخرّ، وقطرات العرق ربيع آخر يتفتح على بسيطة جبهته، تسرحُ طويلا في مسار تسلل قطرة العرقِ على أرضية وجهه ووصولها إلى منتهى ذقنه ثم هرولتها نحو ماء الساقية، كأنها رشة مطرٍ مفاجئة تنعشُ الماء بحياة ما، مبدؤها مسامٌ مفتوح في وجه عامل. تهمسُ ببوح روحها للسماء، وترتعد ضلوعها كأن مخاضا يعتصرُ أحشاءها.

منذ لاح خيالها قرب الباب جرت إليها ابنة أخيها ذات السنتين «منّة» بلهفة.. وتعثر الحديث على لسانها ولم تسعف «تأتأة» الصغيرة عمتها في فهم أي شيء! فأومأت لأمها أن ماذا تريد الصغيرة؟ وأمها التي أصابها الهم بالصمت حتى لم يستطع أحد أن يحدد إن كان صمتها خرسا أم صدمة! أشارت بعكازها ناحية طاولة التلفاز. لتنظر حيث أشارت أمها فتلمح فوق التلفاز شيئاً يشبه مظروف رسالة، دلكت جبينها الأيسر بأصابعها.. وأخذت تتمتم: التهيؤات زادت عن حدها اليوم! فبينما هي في طريق العودة تهيأ لها أنها لمحت ساعي البريد الذي كان يحفظ توقيت رسائلها جيدا ولا يدخل ذلك الحي إلا لأجلها، وتخيّلت أنه ينظر إليها

ويبتسم، احتارت هل تتألم أم تتبسم! لكنها حين اقتربت من التلفاز ولمست بيدها الظرف الذي ظنته سرابا.. غامت رؤيتها وغابت عن الوعي!

صدرها يصعدُ ويهبط، ضربات قلبها، ضغط دمها، أنفاسها وحتى إحساسها بمن حولها، كل شيء كان شبه منعدم، بعد دقائق بدأت تتحقق من عيني أمها التي زاد عمق جرحها خلال السبع سنوات الفائتة بما يزيد على حمل سبعة آلاف امرأة مثقلاتٍ بهمومهن، كما لمحت الصغيرة التي تتنطط بجوار سريرها وتنادي: «عمتو.. عمتو..» وأخذت تسحبُ أنفاسها حتى استنشقت – وهي تقرأ عنوانهُ واسمهُ وكذا اسمها وعنوانها على الواجهة – استنشقت شيئاً من رائحة عطرٍ لم تتسلل إلى روحها منذ سبع سنوات، نفس الرائحة، ونفسُ شكل المظروف، لون القلم نفسه، وحتى الخط نفسه!

ببطءٍ وخوفٍ شديدين فتحت الرسالة بينما كانت تنظر في عيني أمها الذاهلتين، وبدأت تقرأ بصمتٍ مريب.. وأمها تتابع لهفة عينيها، نظراتها التي تقفز من حرف إلى حرف ومن كلمة إلى كلمة، تتجول بين السطور، تندهش مرة وتتراجع أخرى، تقطب حاجبيها حينا وترفع واحدا منهما حينا آخر.. ما تقرؤه الآن قادرٌ على إسكاتها عن الحديث عمرا بأكمله.

لقد كتبَ يقول:

مرحبا آنستي الرقيقة.. عساكِ بخير؟

لقد افتقدتُ رسائلك التي جعلتني مجنون سلمى.. وكم – يا سلمى – أراني أشبه المجانين من قبلي غير أنني مجنون حرفك لا فيك/ وألكِ لا ابتسامتك/ مجنون بما تعتبرينه عيوبا.. ومجنون بما تسمينه نقصا!

سأبوحكِ سرا: لقد كتبت الشعرَ وغنيتُ وفعلتُ الكثيرَ – وبالمناسبة ربما يصلك خلال اليومين المقبلين طرد به ثلاثة دواوين شعرية ورواية كنتِ ملهمتي في أكثر أفكارها – لقد حررتِ المارد النائم في أحشائي، وكتبت علي أن قم واستل قلمك واكتب ثم اكتب ولا تتوقف.. اسمحي لي أن أناديكِ باسمِ ملهمتي؛ لأنكِ كذلك!

يا سلمى..

قبل سبع سنواتٍ ونصف قدمْتُ من رومانيا حيث كنت أدرسُ الطبَّ، واستقر بي الحال والترحال في شقة قيل لي إن ساكنها السابق مات إثر سكتة قلبية مفاجئة، فكان ولا يزالُ «حدوتة الجميع» وبلهجة ساخرة نبهوني: «انتبه على روحك أيها الطبيب!».. اليوم أتساءل:

كيف يسكتُ – عن النبضِ – قلبٌ جرى فيهِ حبّ أنثى مثلكِ؟!

لم تمر أيام إلا ووجدت ساعي بريد يطرق بابي ويعطيني كومة رسائل، لا أخفيكِ أنني استغربت كثيرا حينها من إسم المرسل، والعنوان وغيرهما.. لكنني قررت أن أقرأ واحدة.. والواحدة ساقتني دون وعي للثانية، والثانية للثالثة، والثالثة للرابعة.. وكنت أبيت بين نارين من خوف انقطاعك ولهفة انتظار جديدك، حتى جاء انقطاعك الحقيقي الذي آذاني يا سلمى، وأربكني وأخل توازني وقلب حياتي رأسا على عقب.. قولي أية حجة، قولي حتى إنكِ استسلمتِ للإيمان بموت معشوقكِ، قولي أي شيء إلا الخبر الذي سيقتلني، إياكِ أن تقولي أن رجلا طرق بابَ قلبكِ ولبيتِه!.. ستتكررُ قصتكِ معي! متأكد أنا!! إيييه.. ماذا فعلتِ بي يا سلمى.. لقد قرأتكِ في الرسائل حتى وجدت في رسائلك وألمكِ علما أقوى من ذلك العلم الذي أرهقت عيوني وعقلي به كثيرا.. لأقرأ عن الحياة والنفسيات، لأعشقكِ حتى دون أن أراكِ، ولأشعرَ أنني أمام مستقبلٍ جميل عنوانه الحب الذي أحلم به وأبحث عنه!

ملهمتي..

ليس بين يدي الكثير لأقدمه لكِ، لكنني أضمنُ قلبا صنعتِ فيه الكثير بهيبة حزنك.. وعقوق وجعك.. لا تفكري كثيرا.. امنحيني فرصة فقط لنتقابل.. ثمَّ أطلقي العنان لمساحات قلبك، وجلال عقلك.. فلعلكِ.. لعلكِ – بحبكِ – تهبين روحي الخلودَ، فإنني متشبع اعتقادا أن لن يموتَ قلبٌ تحبهُ أنثى مثلك!

التوقيع/ شريف

القاهرة – الجمعة || 11 نوفمبر 2011م

أنوثة ذات أشواك

قطار العمر لا يزال يسير، وهي لا تلتفت إلا إلى بعض ما ترشدها إليه نداءات الروح، وحوارات النفس، ولا يهمها حساب الليالي خالية كانت أم مكتظة بالأشياء التي تستأهل التغني بها، أو تستدعي الحواس مجتمعة لتشترك في التمتع بها وتخليدها.

أكثر ما كان يشد انتباهها؛ الورد المترنح يمينا وشمالا، يحتك بها يلامسها روحا أو يستثير بشرتها بما يشبه الحنان على شكل مسحوق لا مرئي يفرد نفسه بنفسه فوق مسامات جلدها، وهي «يا للمسكينة» لم ينفذ لعقلها بعد. ما الذي يمكنها أن تحمله تلك الذرات المفعمة بالنعومة والحنان.

تعلم يقينا أن شكة الورد يمكنها أن تقتلَ حقا، ولا تزال تذكر قصة «تينا» الجميلة التي ضحكت كثيرا وبمرح بالغ بين يدي «بيلي»

العشيق المفاجئ الذي أخذها لعالمٍ مليءٍ بالحب حتى إنها تخيلت أن بقع دمها الموزعة بانتظام مسيرهما على الجليد، ستساعد أيا كان ليتبع خطوهما، لم تعلم «تينا» المسكينة أن قطرات دمها ستأخذها للقبر دون حتى أن تودع «بيلي» ولم يخطر ببالها أبداً أن شكة الوردة – التي قُدمت لها احتفالا واحتفاءً بزواجها المستغرب وسط تصفيقٍ وطقوس ديبلوماسية – يمكنها أن تقتل، حتى وإن كان مُقدم الورد هو السفير «بجلالة قدره» ! [8]

وفي حكايا الورد لا تزال عالقة بذاكرتها بعض مواقف قرأتها عن الورد الذي يبدو نائما وما إن تصحو فيه الحياة ويفتح عينيه يجرح الحياة، وتجرح رموشه نسمة الهواء، ويجرح حتى النحلة البريئة التي تشعره بقيمة أكبر، بل يجرح بنظرته المدى الممتد من مصطبة انبعاثها إلى حضن الغيمِ، فإما تدمي الغيمَ أو تستحثه المطر، ليلقفه الوردُ شهدا ويتعبأ بعد التشبع بالشرر يوزعه على ما حوله، والورد أحيانا تدمي أشواكُه بتلاتِه قبل أن تدمي غيرها.

يدور بخلدها أنها جرحت الوردَ وأساءت لتاريخه في الحب

---

[8] قصة "بقع من الدم على الجليد" من كتاب 12 قصة مهاجرة/ للمؤلف غابرييل ج. ماركيز.

والتوليف بين قلوب العشاق، وافتراشه أرصفة العبور إلى دنيا الحلم والعوالم الوردية، وتواضعه أمام كل الأشياء التي لا تملك فاعليته العجيبة في دمج ما استحال على غيره مجرد تقريبه. لكنها تغمضُ عينيها لترتاح قليلا من عتاب الورد، وتهربَ من طغيان عبقه حتى لا تمزق تحت سطوته كتابها الأخير في جروح الورد.

تنكمش على نفسها وتغلق كل نوافذ الإحساس لديها، لتخط أخيراً خاتمة الكتاب في سطور لا تتعدى الأحد عشر سطرا، تكتبها بعقلها وفقط بعقلها، لا يستفزها العطرُ فتزيد سطرا شاعريا، ولا تعيد إليها ذكرى الموعد الأخير تحت شجرة الورد التي على الناصية فتشتعل المشاعر لتمسك بزمام القلم وتخط ما يحلو للقلب «المنهك» وللروح «العطشى» أن يخطّاه في الخاتمة، انكمشت بإصرار أكثر حتى تكتب ولو شيئاً واحداً ينصفها حين يُقرأ مستقبلاً.

وتبدأ بكتابة السطر الأخير، ولا يلوح لذاكرتها المعبأة بالأشياء إلا وردة الإصيص الملون على شرفة «ساحرة الحيّ» الجميلة جداً، وتبدأ باستحضار أوصافها التي كانت تسرق كلَّ نظرات رجال الحي وربما قلوبهم، فلا تسمح لغيرها بأن تمتلك ولو نظرة خاطفة للحظة واحدة، أو أن تحتل قلبا بنظامٍ جزئي أو مؤقتٍ حتى، جميلة كالورد كانت هي، لكن

حين يجرح الورد فإن الدنيا تغيم بشكل يدمّر كل المعاني الناعمة.

دون صعوبة تتذكر أوصاف تلك الساحرة كأنها تراها أمامها الآن:

غصنُ البان وصِفاتُ الأقحوان، نسمة فجر لم يغتل عذريتها الغبار المارقُ من الجنوب، نظرة محاطة بقداسة الطهر، لم تمسس براءتها بعدُ أية شهوة، التيه الواضح في عفوية ارتماء منديلها من فوق شعرها المنسدل كسواد الليل بخفاياه المثيرة، لم يخبئ ذلك التيه إلا مزيدا من وصوف النقاء، وطغيان عطرها المتأرجحُ بين روح وعقل رائيها يذهب بهما لحظة ويتحكم فيهما أبداً، فستانها الذي حين يهفهفُ يبدو وكأنه المحرك لهواء الكرة الأرضية فيمد الفضاء بالانتعاش، بشرتها لما يكاد صفاؤها يُظهر سريان الدم في العروق، روحها التي لم تستسلم مرة لنزوة مع فارس الأحلام ولو خيالا، صوتها الذي يحقن الكون بالحياة، أناقة غُنْجها، تكسُّر مشيتها، «دلعُ» حديثها، ورشاقة حضورها، وأخيراً حين كانت تعضُّ طرف شفتها السفلي بدلالٍ لتقف الدنيا عند البلورة الضاغطة على الشفة المحظوظة، وعلى ملايين القلوبِ معها.

هكذا كانت تراها وهي الأنثى، فكيف يا ترى كان يراها الرجال!

وتقلب الصفحة عن تلك الأوصافِ لتكتب ما يلي لأنها تراه الأهم، وعلى كلٍّ.. فكل رجلٍ يرى محبوبته هكذا.

ثم تعود لتمسح الأوصاف جميعا دون أن تبقي على أي منها فيكفي أنها أسمتها بالساحرة، ثم إن أوصافها احتلت سبعة سطور بأكملها وحيز كلمة في السطر الثامن. وتستبدلها بملاحظة صغيرة: لم أمسح الوصف بدافع الغيرة، بل لأن هؤلاء الجميلات هنّ من علمن الورد كيف يجرح!

وتمضي في سرد خطبة الختام المقتضبة، وكأنها تجسد حياتها دفترا أو حتى ورقة منه تقرؤها وتُقرئها لغيرها لتتكشف أخيراً كل السطور الجميلة، وكل الحكايا الجميلة في دفترها عن أنها كانت خالية من أنفاس أية أنثى إلاها، بينما سطور المأساة فقط مكتوبة بأقلام مؤنثة، ومزخرفة بأنفاس مؤنثة.

فطبع الإناث يؤثثنَ لطقوس الطعن أكثر الأماكن إثارة، وجمالا، وشدا للانتباه، وإغراقا في المضي بسحق أكثر المبادئ سلطة على روح المرء، ويجلبن إليها الضحية دون أن تدري، سواء كانت تلك الضحية رجلا مندهشا، أم أنثى مسكينة.

لماذا..؟

تتساءل: لماذا كلما عشت سطرا مغمورا بأشياء حلوة، ثم وُضعت آخر السطر نقطة تنهيه وتنقلني قسرا للسطر التالي، كانت من تضع تلك

النقطة أنثى أو بالأصح (امرأة)، لماذا إذا رقصتُ منتشية على منصة جمهورها الحاضر هو فقط رجلي الأثير الذي يراني الأجمل، ثم إن أُسدل الستار لأقف حائرة تكون من أسدلته أنثى أو بالأصح (امرأة)، وفي نهاياتي الحزينة حال يغرقني الدمعُ والوجعُ لمَ لا تلوح أمامي إلا وجوه الإناث أو بالأصح (النساء) وإن غرقتُ في السعادة وعشتُ النعيمَ صحوا ونوما لمَ لا أجد في قائمة الغياب إلا أسماء الإناث أو بالأصح (النساء).. فأية أنوثة تلك التي لا تتغنج إلا إذا شحنت نفسها بأوجاع الغير.

لقد باحت بالكثير مما لم تكن تنوي قوله، إلا أنه قد آن للأحلام المطحونة أن تتحدث عن نفسها، تذيِّلُ الخاتمة بتوقيعها، وتشعر ببرودة تسري في جسدها الذي أرهقته حرارة التفكير وآذاه التعثر كثيرا، فهي الآن لأول مرة في عمرها تضعُ بنفسها نقطة الختام، ومتراسا على الغلاف تتبعه بلفظة (النهاية)، وتضمُّ كتابها إلى صدرها، ولا تبوح بشيء.. سوى: سأعتذر للورد لاحقا، وتتنهد: سأحبُ أنوثتي أكثر.. وتحتضنُ كتابها الأخير... وتنام!

الخميس || 16 يونيو 2011م

ثراء أخلاق

يأتيها من ناحية التلفاز صوت امرأة/ تقدم برنامجا تحاور فيه مجموعة ضيفاتٍ، هذا الصوت تحفظُ نبرته الوقحة وتعرفه جيدا.. لطالما نعقَت صاحبته في وجهها وآذتها حسدا وغيرة لا أكثر!

المرأة إياها كانت قد سألتها – بصراخٍ – صباح سبتٍ وألحت: لمَ لمْ تردي على هاتفك أمس، كنت أحتاجكِ في عملٍ مهم: إلى أن ردت ببساطتها وصفائها الذي عرفها بهما الجميع: أنا أمنحكم الأسبوع كاملا، وعندما احتفظ لنفسي بيوم واحد، تستكثرين علي ذلك؟ ثم إن هذا اليوم بالكاد يغطي ما أحب أن أفعل فيه.. ليس لدي فيه وقت لهاتفٍ، ولا لعمل، وتكمل بينما تدير ظهرها وتنطلق ناحية مكتبها: «ولا لفتاة بنابين، ترتدي الأشواكَ، وتزعقُ كبوقٍ مزعج، وتخمشُ بمخلبها ظهر من يسبقها!» كانت تأكل جزرة (عادة صباحية) تقترب منها المرأة البومة –

هكذا كانت تسميها الموظفات – وتصرخ في وجهها: لماذا تعطينني ظهرك بينما أتحدث.. ثم أين العمل المطلوب منك، ولماذا تأخرت في الحضور اليوم، ثم ما هذا الرمل الموجود في أرض غرفة المكتب؟

وطوال ترديد هذا الموال الذي يتكرر كل صباحٍ – عادة كصفارة إنذار لا تهدأ إلا بعد أن يفزع الجميع – كانت تبتسم لزميلاتها، تسلم عليهن وتطمئن متعمدة إظهار اللامبالاة، وتتمشى بين مكاتبهن بينما تقضم جزرتها وتدندنُ: «صباح ومسا، شي ما بينتسى/ تركت الحب وأخدت الأسى/ شو بدي دور.. لشو عم دور على غيرو/ في ناس كتير، لكن بيصير ما في غيرو...»[9]

وهكذا حتى تصل إلى مكتبها، لتجد المرأة – التي لا تزال تصرخ وتدمدم بألفاظ غريبة دون أن تعرف بالضبط ماذا تريد أصلا – وقفت قرب مكتبها، تمدّ الجزرة ناحية المديرة وتعرضُ عليها أن تشاركها وببرود واضح تسألها: «جزرة...؟» فتستشيط الأخيرة غضباً.. وتبدو هي وكأنها تحملُ في داخل أحشائها ثلاجة «هل أبوحكم سرا: معها حق.. فالإلحاح اليومي حول نفس الشيء فعل مزعج. وأسلوب الصراخ والتهجم غير مقبول أبداً وطريقة تلك المديرة مستفزة جداً في كل شيء» ما إن تكاد

[9] مقطع من أغنية "صباح ومسا" للمطربة فيروز.

تنتهي المديرة من زعيقها تماما إلا وتبادرها: هل انتهيتِ؟ ثم تشير بيدها ناحية الباب فقط، ولا تسمع سوى نفخة: هووووف.. تنتفض المديرة بعدها وتدير ظهرها وتخرج من المكتب.

صفاء روحها وبياض قلبها، ابتسامتها التي لا تغيب ونور وجهها الذي لا ينطفئ كان يذهل المديرة حتى إنها كانت تصارحها به أحيانا وهي — ربما — تعلم أن تلك اللامبالاة لا تتعدى القشرة الظاهرة فقط، بل كانت متأكدة أنها تركنُ إلى نفسها كل مساءٍ وتبكي، تستعرضُ ما حصلَ وتتألم، ثم لا تجدُ مفرا من الفضفضة لخليليها الوفيين (ورقتها والقلم)..

تتذكر تلك الأيام بينما تتجول بين مذكراتها وتضحك مرة وتدمع مراتٍ.. وهي تقرأ ما خطته بيدها.. وأرسلت بعضه إلى صديقتها اللصيقة:

مساؤكِ عنبر يا صنوَ الروحِ.. وعنبر المساء، هو إياه ما تسلل بين سطور خواطره، هو أيضا إياه ما أزعج الألم فنفضه عن جدار القلب ليدبق بدلا منه إشراقات أمل، وكذاك إياه الحرف الناطق يكاد يفضح ما خبا من أسرار قلب مكابر، لا تقلقي، فالأميرة ما زالت تتربع هادئة فوق عرش باطنه نسيج رضى، وظاهره إياه الإشراق، لم أذبل، لقد تفتحت والله بعد أن تركتهم.. لقد كانوا يوظفون مع البشر كائنات غريبة تدير العمل، تطالبنا بقتل الإنسان داخلنا وإغفال المشاعر لنعمل كآلة تستقبل أوامر

وتنتج شيئاً آخر اليوم!

أشعر أنهم مصابون بداء التغوّل اللاإرادي/ أو الإرادي.. لا فرق!

لما كنت بينهم.. رأيتُ أكثر مما يحتملُ قلبي الصغير!

خذي هذه.. لقد مللتُ المزمار الذي كان يصيحُ في وجه الهدوءِ صباحَ مساءَ.. أن انصرف يا هذا من المكان!

ولم تكد تمرّ بي لحظة هي أقربَ للانتحار.. منها للاكتواءِ بنار الاحتمال.. احتملت فوق ما أستطيع.. وتقلدتُ كل ما أستطيع.. وتكبدّت عناء ما لا أستطيع.. وحاولتُ على أمل أن أستطيع!

عزيزتي: ..ن..

قرأتُ تفاصيلَ كثيرة في عيون الجميع، لكنني لم أزل أنا، إياها.. الشمسُ التي لن يخمدَ نورها.. مع أنها ربما تغيب، لكنها لن تموت أو تنطفئ فيها شعلات الدفء الألف، ولن تضيع من يديها مقاليد الحب.

لا أزال أذكر كل شيء في اللحظات المقدسة، في الساعاتِ التي تقترب من الفجر بمقدار لمحة قلبٍ يحترق شوقا، في كل انتفاضة عوزٍ، ولسعة حاجة!

وأحن.. وما أقسى الحنين.. لكل ما بدأناه ولم ننههِ، لكل ما احترقنا لأجله معا، لكنني مللتُ الظلم يا صديقة، فأبيتُ إلا أن أحقق حلما كان يتهادى يوما بين يديَّ، خوفَ أن يضيع، فآثرتُ أن أحترقَ بعيدا عن أعينهم، على أن أرتاح بين يديهم وغدرا يتكسر حلمي عليها، انتهزتُ فرصة بعدِ عيون أحدهم عني، لأتخذ قرارا جريئا، أعلم مسبقا أثره الكامل، لكنه الإصرار الميت الذي طالما عانيت منه.. اخترت، فقررت، ونفذت، وربما ظلمت! كان يجب أن أفعل ذلك، يجب أن أنتصر لكل مبدأ تعلمته (فالحرة – يا صديقة – تجوع ولا تأكل بثدييها)[10] على الرغم من أنني بينهم رأيتُ حرّة تأكل بثدييها دون حتى أن تجوع!

والذلّ.. ليسَ من الكؤوس التي تروق، أو يروق لي المثول بين يدي صبّابيها! ففي عُرفي أرى «اللقمة المغموسة بالذل لقمة ملعونة تسمُّ الروح ولا تسد الجوع» لأن من تربى في عزّ ونقاء دائمين، لا يستطيع لحظة أن يستسلمَ للظلمِ الحقيرِ الذي كان الجميعُ، يزرعونهُ في الدربِ، ويصبونه على الرؤوس ويكيلونه على القلوب وحتى الأجساد، دون أن يستثيرَ ذلك لديهم شعرة من ضميرٍ، على أنه كان قد أحرق كل خلايا الإحساسِ لدى

---

[10] مثل عربي شهير.

أنفة الضمير!

كل الرقة استهدفوها غير آبهين بآهة مكتومة ولا صرخة مكلومة! لتسري في بدنِ الكون رعشة وتسيطر القشعريرة على كل زاوية تحتضنُ حياة، لكنهم أيضا لم يفتحوا قلوبهم لأية آهة!

لقد – وربي – تعبت يا صديقتي، فاخترت أن أكابر، على أن أذوبَ قهرا وكمدا، وما ذاك إلا جزء من (ثقافة) ثراء الأخلاق الذي لا يزال ميراثي الباقي!

أما الظلم يا صديقة:

الظلم أقوى من بلاغة شاعرٍ / لكن هزيلٌ ما لهُ استمرارُ[11]

ليسَ لدي مزيد حديث، الدموع بدأت تحول بيني وبين رؤية ما أكتب، لقد أبيت أن أبوح بتلك الكلمات والهمسات، إلا بعدَ أنْ ارتبطتُ بعمل آخر، ربما لأنفة وعزة في نفسي، لم أرد أن يستخدم أحد ذلكَ أداة ضغطٍ على قلبي المسكين!

---

[11] بيت شعر يتيم.. قمتُ بارتجاله كرسالة موجهة لأحدٍ ما.. وقد وصلت الرسالة.. وتواصلت المظلمة!

ربما أراكِ، بل يجب أن أراكِ قريبا، وقريبا جداً، أراكِ وفقط!

نسرينة لروحكِ الحرة

تصبحين وتمسين بخير

غزة.. الخميس || **28** مايو **2009**م

أربع «أنّ» ـاتٍ في صباح راجف

(1)

أن تُنسى!

إنه الكابوس اللئيم،

وبعده فلتذبح كل المرايا

لا يريد أحدنا النظر إلى الندوب في وجنتيه،

ولا يريد أن يحك بيمينه أو يساره / لا فرق.. المهم أنه لا يريد أن يحك الحبوب المنتشرة على جبهته..

لأن كل ندبة أو ثغرة.. يمكنها أن تحمل روحنا في ارتحال طويل دون مشقة التفتيش في ثنايا الذكريات،

أو التقلب بين الصور المحنطة!

(2)

أن يتجاهلك المكان!

هذه الفكرة لا يمكنها أن تضيف إلا شيئاً واحداً

هو أنك لم تكن هناك أصلاً

فكون الجسدِ وحده، لا يعني بالضرورة التحام جدائل روحك بموطئ الخلود في ذاكرة المكان

(3)

أن ينتصر شعور الفقد والغربة على كل ملامح الجمال في صباحك.. فهذا ليس بمبشرٍ أبداً

على الرغم من كل الأقراص المهدئة من المران والدربة التي ابتلعتها في حياتك، وعلى الرغم من كل الأنوار التي تحاول جذبك

ابق مستيقظاً.. خوفَ أن تسحبك تخوفاتك وأنت نائم إلى صحراء الجبن!

وابقَ حاضراً.. ولو كان حضورك كورقة الخريف التي يمكن أن

تجذبها الأرض ويحتضنها المكان تتفتت في حضنه حتى آخر الأنفاس

(4)

أن تبحث عن «الحلا»

بينما صفحات عقلك ينتشر فيها السوس.. ليس كسوس الأسنان

بل أمر وأدهى

لا تبحث عنه فالعوالم الحلوة..

لا بد تُسحبُ من تحتك بنعومة فائقة الحرفية

قد لا تستطيع أن تشعر بقوتها

قبل انتهاء المهمة، أو حتى بعدها

ولا تقارن تمسكك بهما، بعزيمة النمل

انتبه.. أنا لا أقول بأعدادة المهولة

فالنمل محترف في سحبِ البُسُطِ الحلوة

إلى خارج حدود سيطرتك

الثلاثاء || الأول من مارس 2011م



جلال البؤس

هذه القطرات المتوزعة بأحجام مختلفة كأنها رشة واحدة من بخاخة ذاتِ سيطرة وثِقَلٍ عظيم، لله.. ما أكبر سطوتها التي تعطيها القدرة والجرأة لتوزع قطراتها هكذا في كل الأمكنة، فتلفت انتباه العابرين، وتجعل أصحاب «السوابق» يستعرضون سوابقهم!

أمرُّ بعاملٍ فقيرٍ يجلسُ على طرفِ إطار مقطورة تالف وملقى على الأرض بإهمال، متكوما على نفسه - العامل - ووجهه ينزُّ ملحَ شقاء.. ياه كم هي قاسية نسمة الهواء حين تُشعرهُ أن الصبية الرشيقة التي تمر بجواره أحق بالنسمة منه! وتبرر لنفسها بذلك حتى ترتمي بين ثياب الفتاة وعلى شعرها فتبدو ناعمة مهفهفة!

حتى الهواءُ يا عالم! يزفرها ملهمة ويسند رأسه إلى ظهر كفه المقفرة إلا من الخواء غبارا وتشققا!

تحضرني مع هذا المشهد رسالة صديقٍ يغمسُ جسدهُ في الفقرِ ثلاث وجباتٍ يوميا، ويصلّي الخمس بروحٍ معافاة جداً، عرفتهُ أنيقَ المبسمِ حين يقابلُ أية بلوى، متمتعا بالرضى أبداً – أو على الأقل مُذ تعارفنا – لم يغره بؤس واقع الغنى عن خيالات الفقراء، رسالتهُ تلك اختصرت عمرا من الشقاء بكلماتٍ ألقاهنَّ بين يدي حين قال: «إن احتمالية (أو فرصة) سقوط «خبزة» مدهونة «بالزبدة» على السجاد، يتناسبُ طرديا مع قيمة السجاد!».

للوهلة الأولى لم أعبأ بالرسالة كثيرا فالصديق نفسهُ طالما تحدث عن القرنفل واللازورد وعن العنقاء ومناديل العذراوات باللهجة إياها، إلا أن سرا ما – يخصُّ أصحاب السوابق – ظلَّ يجذبني لتلك الرسالة ويجعلني أقف مرارا على طرفها علّهُ يفصحُ عن نفسهِ أو يرتمي بين يدي إشفاقا عليَّ، إلى أن أطلَّ طرفُ الخيطِ ليجعل فكرة الفشل في سحبه ترهقني من جديد!

صحيح أن البؤس قادر على أن يصوغ قلائد لا يمكن لأغنى الأغنياء الحصول عليها، ربما لأنها لن تلفت انتباههم؛ لكنني أرى الأغنياء إذ يتمرغون بالنعيم يبدون كالبؤساء واحدهم يسلمه القدر للآخر!

أي بؤسٍ هذا الذي يعبئ أيادينا بدهانات الصدأ؛ ونحنُ نقرقرُ ظنا منا أن الصدأ هو ليس إلا كريمة حلوة بطعم المشمش، فنجرعه بؤسا؛ لأننا

لا نعرف أساساً طعم المشمش!

صه.. لا تسبوا البؤس! ما هذا التفكير الملعون.. بل رددوا ورائي:

تبا للمشمش!

تحضُرني [البؤساء] رواية فيكتور هيجو (الجليلة) وتُحْضِرني إلى عالمنا المصغّر عن جلالتها، فأكتشف بعد الغوصِ فيها أن عالمنا هذا يحتاج إلى روايات تأخذنا إلى عكس ما جاء فيه!

لأن الإنسان لا يحب أن يصطدم بواقعه الذي هو غارقٌ فيه أساساً إذا أراد أن يمنح نفسه هدية الإبحار في عالم الخيال! فإن جاء الخيال بائسا.. تكفهرُّ أمنيته المعلقة على قراءة الجديد، حين يصطدم بخيال أشد قسوة من الواقع.

وعلى سيرة هيجو.. لستُ أدري.. هل تشبهنا أحداث رواياته إلى هذه الدرجة من البؤس، أم أنها لعنة مس اسمه أو المرور به، هذا الاسم كان لي معه قصة! فقد لاحق ذاكرتي منذ الصغر، حين كنت أقرأ سؤالا عنه بين بنود الأسئلة عن مؤلفي الكتب في المسابقات الثقافية، وكان يأتي اسم كتابه الذي غاب عن ذاكرتي الآن تماما – كعادة الأشياء التي تختفي عن نواظرنا حين نحتاجها – على الرغم من أنني لا يجب أن أنساه فقد

أخطأت مرة ونسبته للعقاد.. أوه.. لا يمكنني أن أنسى نظرة معلمتي وصيحة استغرابها حينها: العقااااد! أي بؤس كالته هذه المرأة علي حين أكملت جملتها: «الكتاب لفيكتور هيجو يا سماح!».

هيجو.. هيوجو.. بدأت أمشي، أتلفتُ وأردد الاسم حتى أصبح كابوسا، إلى أن جاء يومٌ تقابلنا فيه عند تقاطع ما؛ وكنت كلما رأيت روايته [البؤساء] كأنني أعاديه وأقول: لن أقرأ لك! ثم غابت الرواية طويلا ولم تغب صورتها ولا رغبتي في امتلاكها حتى جاء وقت تمنيتُ أن أقرأها فيه لدرجة أنني حين امتلكت نسخة ورقية عنها كتبت ذلك على صفحة العنوان فيها!

أعود لهيجو وحواراتي الدائمة معه، لقد كنت أشعر أنني أدخل في عراك دائم مع هذا الرجل وأواجهه بنقطة الالتقاء: أراك مثلي تماما أو أنني مثلك – لا فرق – أسحق كل الجمال الذي تحتويه النصوص فأصفها بأقبح ما فيها [نعم.. البؤس هو الأقبحُ؛ حتى وإن كان جليلاً!] مثلك أنت.. نعم ألست أنت الذي تركت الفتنة الصارخة للراقصة الغجرية أزميرالدا، تركت سعة ساحة الاعتصاب، هيبة الكُنس، وصخب باريس بأكمله لا نوتردام فقط، ثم شذذت بعنوانك إلى جلالة البؤس وإن كانت محض متشردة! وزدتها حين تنازعت أمامك الجلالتان فأوليت ظهرك

لجلالة الشعر وحساسية جرنجوار وانحزت لبؤس قارع الأجراس!

وحين أقذف في وجهك سؤالا ساخطا فيه كل صراحة البؤس التي عرفتها الدنيا: ما الذي جمعني بك يا هيجو.. ماذا.. ماذا؟

تؤجلُ الإجابة إلى ما بعد الاعتراف والإقرار الكامل مني بأنك صاحب الانحياز بل والامتياز في وصف البؤس والبؤساء.. ولا أعتبر – طبعا لا أعتبر – الدليل الوحيد على ذلك مدخل رحبة الأعاجيب! □□

وبعد أن يرهقني العناء ويلهمك استرخاؤك.. تقرقر بصوتٍ عالٍ، تتنفس بعمق، تعتدل وتبدي الهدوء وتجيبني: «ببساطة؛ إنَّهُ جلالُ البؤس!».

الأحد || 4 مارس 2012م

---

[12] أحد فصول رواية أحدب نوتردام/ لفيكتور هيوغو.



ذاتَ أرق

النوم

الحلقة الأصعب فهما على عقلي..

والوجبة الأكثر عُسرا حال الهضم!

في مسلسل الأحداث اليومية، حلقة النوم (دائما تفوتني) فأحضرها متقطعة، وليس على «Youtube»[13] أو ما شابه!

بل متسمرة أمام شاشة عرض (التداوي بالأعشاب) من خلفي ألف «روشتة» وحولي أصوات هامسة افعلي كذا.. بل كذا.. لا.. كذا.. بل كذا.! أو لا تنامي.. هذا أفضل! أووووه!

أحوِّلُ السرير إلى صيدلية، بعض الحليب الدافئ.. مع بعض الماء

[13] موقع على الشبكة العنكبوتية، خاص بالمقاطع الفيلمية "الفيديو"

المثلج، مع قطرتي نعناع أو ينسون.. وربما حبة منوم.. وأخيراً بعد أن يثبت فشل كل ما توصل له الطب الأصيل والبديل! - في علاج حالة الأرق المستعصية تلك - أنهض كفتاة هزت أمها قدمها لتوقظها صباحا وتأخذها إلى درسٍ خصوصي في يوم إجازتها، لكنني أقوم غير باكية على فوات لحظة نوم! أحضرُ كأسا من القهوة وثَمَّ (مقعدٌ أمام المكتبة) أو (قلمٌ ونوتة!).

وأهيم في فسحة الليل (خيالٌ) و(خيَّالون).. بحرٌ وغواصة! وكمٌّ كبيرٌ مما لا يروقُ لقلبي لكنه فعلا موجود.. فمدد.. مدد يا مجرَّة الصَّبْر! وهلم يا وحي الكتابة، أمطري يا سحابات الإلهام.. وانصرف أي تكتيك الملل!

ثمة مزاج يتسلل أخيراً.. ثمة هروب واقتراب.. ثمة لمس وابتعاد.. وثمة أخيراً احتضان وطرد!

كومة أحاسيسٍ تلملمُ بعضها البعض وتعتصم أمام مقر قوات التدخل السريع لفك الاشتباك الدائم بين النعاس البغيض، والمقاومة المسكينة!

كلما نعستُ.. وفكرت في النوم.. تعبأتُ إحساسا بأن شيئاً ما

سيفوتني إن نمت، وسأصحو صباحا لأسرف في التفكير بما لم أره!

كلما نعستُ.. وفكرت في النوم.. تعبأتُ موتا مع جلد ذاتي بكل ما أملك من قسوة يولدها الفشل.. لا ذنب لها.. أنا أجلدها لأجل ما لم أنجزه!

كلما نعستُ.. وفكرتُ في النومِ.. تعبأتُ خيبة لعلمي المسبق بأن كل محاولاتي لإرضاء السيد «نعس أفندي» ستبوء بالفشل.. وستتبع بقهقهته بيننا يلوّح مودعا إياي متوعدا بمجيءٍ آخر.. وسخرية أكثر التصاقا!

كلّما نعستُ.. وفكرتُ في النومِ.. تعبأتُ عبقرية لا تزورني إلا في تلك الحالة، لأبدأ برسم حياة الناس، وخطط تصليح الكون!

قبل يومين رجوت النعاس ألا يأتي.. ساومته على الدفع مقابل ألا يزورني أبداً..

سخر مني أخيراً.. وانتهى أعلى باب الغرفة مستقرا فوق مربع الظلّ الذي رسمه برواز صغير كان معلقا على الحائط!

لا قنديل مضاء، ولا فانوسَ معلق أبداً..

ضوء خافتٌ من العمارة المقابلة يجعلني أنشدُ رؤية شيء فيه!

والزجاجـة المثقوبـة المعلقـة علـى عمـود الكهربـاء تكـون مـضاءة أيـضا!
يأخذانني إلى خـارج الغرفـة الضيقة.. المظلمـة! ومـا إن ينتهـي «الـنعس أفندي» إلى مستقره.. أنتهي أخيراً إلى فراشي.. أعدُّ كلّ «غنمات الحـارة»! «أفكفكُ» كل أوراق التسالي في مخيلتي، وأعيـد تركيبهـا، أقـرأ شيئاً مـن القرآن، وأظل أصلّي لله أن ينـزل علـى قلـبي سـكينة لأنـام! أو يأخـذ هـذا «الغـضيب» المـسمى «نعـساً» فتهـدأ ثـورة نفـسي مـن ترقيـصه لروحـي.. يشهّيها امتلاكه ويفرّ!

~

على فكرة!

لو لم تكن أمي مسافرة، لما كتبت هذا الشيء المدعوّ نصا

لو أنها هنا.. كنت سأغلق جهاز حاسوبي وأطوي كل الأشياء

وأحمل «كوفرتا وخاصات خاصة».

وأحشو نفسي بجوارها على السرير وإن كانت نائمة!

هامش

أنا لا أتأرّق / في الحقيقة.. أنا أكره النوم!

الجمعة || 30 سبتمبر 2011م

لا يزال الليل باردا

رسالة جديدة واردة

كيف حالكِ

(شاهر)

بينها وبين نفسها تتعجب: يااااه، (حتى إنها نسيت أن ترد)

شاهر/ لقد عاد يراسلني بعد غيابٍ أربع سنواتٍ، ألا يزال يذكرني؟

تخيلتهُ يقول: ومتى نسيتك؟

أرسلتْ إليه تقول..

– أحقا لم تنسَ شيئاً يا شاهر!

لم يرسل رداً/ بدأ يراودها الشكُّ والألم، حتى رنّ جرس الهاتف،

لترد وهي في غيبوبتها:

- ألو، نعم.

- لم أنسَ طبعا، مجنونة.. أحقا تتخيلين أنني قد أنسى!

لم تفق بعد من غيبوبتها لكنها استجمعت إحساسها المشتت وردت:

- لا أزال بخيرٍ، يا شاهر.. وأنت؟

- أنا أيـ...

قاطعته، وأخذت تغني اسمه بعاطفة واضحة:

- شاهر.. شاهر.. كم أشتاق لترديد اسمك من جديد!

- ألا يراودكِ الخجلُ من أحادثينا المجنونة؟

- أخجل لكنني لا أندم.

- قولي: ما أخبار خطيبك؟ أو لعله بعد كل تلك المدة صار زوجك!

- مممم..

- يبدو أنكما متخاصمان جداً أو متصالحان جداً.. أنا أعرف ردة الفعل هذه جيداً!

- ههههه

- تضحكين!

- لا يزال الليل بارداً يا شاهر!

- تقولين بارداً...؟ بارداً.. ولا يزال.. لقد انسحبتُ من حياتكِ قبل أربع سنواتٍ وعدت الآن تجرني نفسي إليك جراً خوف أن يصدني أحدهم على بوابة الخطاب!

- شاهر أرجوك! ائذن لي بالانصراف.

- نعم ياسمين لكن.. أتذكرين قصيدة المحار يا أميرتي..

- يااااه (أميرتي) منذ كم لم أسمع تلك الكلمة!

- نعم ولم تكن لي أميرة غيركِ.. أتذكرين حين قلتِ في واحدٍ من مقاطعها: أن حاضنة المحار أحياناً يرغمها القدر أن تكشف طرف روحها وتسلم اللؤلؤات لهواء المجهول.. وكانت تنفذ كل ذلك وهي تعلم علم اليقين أن قدراً مجهولاً سيجذب حبات من اللؤلؤ إلى قاع التجمد.

يتابع شاهر تذكّر القصيدة وهي تبكي / تكاد تختنق.. ثم تصرخ: شاهر!.. توقف رجاءً.

لكنَّ شاهر لم يجب وكأنه لم يسمع صرختها، فأكمل: تكاد المحارة يا ياسمين أن تتقطع لما يسببه القدر لبنياتها الناعمات.. وتكاد

الحاضنة تموت إذا لامس قلبها برد الوحدة!

من جديد تناديه لكن هذه المرة باستجداءٍ، ودون صراخ:

– شاهر.. أرجوك.

وشاهر لا يوقفهُ عن الإكمال شيء:

– وتكاد اللؤلؤات اللاتي انزلق بهن القدر إلى قاع الجليد.. تتفجّرُ الواحدة منهن بكاءً ووجعاً.

– ليتك لم تزرني الليلة!

– ياسمين.. أنتِ أجمل لؤلؤة (انزلق بها قدرها) إلى قاع جليد الوحدة! أنت متفردة يا ياسمين.. لست فتاة عادية.

نبرة صوته تأخذ في الارتفاع ونحيب روحها يزداد، حتى تخيلت أن صدرها يكاد ينفلق ويخرج منه الوجعُ دماً وصديداً!

يسكتان لكنّ دقات القلبين لا تسكتْ، فيبادرها بحنوه الذي لم تنسه لحظة:

– أخبريني ياسمين.. ماذا فعل بك الوغدُ الجبان (ولو أنك فضّلتِه عليّ) أنا حتى الآن لم أشارك فتاة غيرك ما شاركتك إياه.

برقة أملٍ طفيفة لمعت في قلبها في ذلك الوقت لكنها على الفور

تذكرت أنها استسلمت لرغبة أمها التي لم تكن تريد أن تحرج ابن أختها!

ترد بصوتٍ منكسر: لقد كنتَ صديقا رائعا، لكن.. ضحية نحن للظروف يا شاهر.. منذ فتحت حاضنة محارتي طرف روحها وأسلمتني للريح.. حينها ظلمتُها كثيرا وشككت في إخلاصها.. لكنني الآن أشبه بمن نفضت عن نفسها كابوسا.. كنت أسأل نفسي كل لحظة: لماذا يحصل ذلك؟ لكن الرّد (المشفّر) دوماً كان أقوى من أن أعيد سؤالا أود بصدقٍ معرفة إجابته!

- أي سؤال؟

تسترسلُ في الحديث بينما تأتيها تنهيداتُ شاهر من الطرف الآخر: اثنان وثلاثون عاماً مرت، لم أتمنَ فيها أكثر من دفء الليل، أمستحيلٌ أم كثيرٌ ذلك علي يا شاهر.

- صدقيني لا أملكُ إجابة.

- الردود المشفرة من جديد.. إيّه يَا هذه الدنيا... (وتطلق تنهيدة...).

- عن إذنك دقيقة، «المدام» تناديني!

- نعم شاهر.. خذ وقتك.

تغلقُ هاتفها للأبد.. وينفجر بداخلها ألف انفعالٍ لم تتمكن من فهمها حين سمعت كلمة «المدام»

عرفت فيما بعد أنه تزوج قبل سنتين من فتاة روسية، وتذكرت أنه كان يعتقد بأن الفتيات العربيات لا يستطعن مكافأته بما يستحق من حب.

السبت || 7 مايو 2011م

إلا هيَ

بالتوالي.. ترن هواتفهنّ المحمولة، كل منهن تبسم وتلتقطه بفرح، وتومئ بقلبها قبل لسانها وعينها وتردد: لا تقلق حبيبي.. لن أتأخر!

تنفَضُّ لِمِّتُهنّ الـ«حلوة» ليفترقن!

تنفضُ هي الغبار عن شاشة هاتفها النقال، وتبتسم ابتسامة عريضة (رسالة جديدة!) ربما كان الهاتف على الوضع الصامت، يقفز قلبها فرحا.. تتراقص في عينيها اللهفة

تفتح الرسالة... ثم:

لا تنسي أن تحضري معكِ دفتر التحضير غداً.

تباً للطموح.. تلفظها قهراً، وترمي الهاتف بعيداً، ولا تلبث أن تنسدل من جسدها انفعالاتُ الموت!

السبت || 6 نوفمبر 2010

إرهاصات ولادة قلب

مدخل

بعدما ظننت أنها مستحيلة؛ أتت فعلاً..

~

أسأل عنه، أسائل المارين: هل لمحتموه؟! بينما لم أكن أرى حولي سوى أشباح، وأشباه بشر.. حتى أجابني الصدى وبدأ يختفي تدريجيا: لقد مات، مـــــات!

كلمة سوداء خانقة، شوشت كل مستويات الرؤية لديّ.. لكنني أيقنت حقيقة ما يقول فليس ثمة شك في ذلك.

يوم ليس من التاريخ..

هذا اليوم الذي فيه افتقدت قلبي، لا أشعر أنه مرّ أبداً!

أذكر تفاصيله كاملة.. لكن لا أستطيع البتة! تـذكر اسمـه ولقبـه، لست أذكر أي الكلمات التي كانـت منقوشـة بروعـة علـى العلاّقـة المغطـاة بالغبار.

قطعة قماش بالية، اكتـشفت مـؤخرا أنهـا في محفظـتي، حملتهـا فعاد بصيص أمل يدغدغ روحي التي بدت كالبلهاء وهي تبحث عما ضاع!

«تباً» صرخت بـشدة، وكررتهـا «تبـاً، وتبـاً.. تبـاً» وبـدأ يتـساقط الجمان على صحن خـدي فيلـسعه بـألم عـذب انتـزع مـن داخلـي اكتـواءً مُتراكما أكرهه وأكره إقامته بين أروقة روحي.

هوى رأسي المثّقل على يدي وكأنه ينـتقم منهمـا إذ امتـدتا بقـسوة إليه تدعكانهِ لما نسيت الاسـم أو لمـا أردت تـذكره ورفعتـه ليهـوي ثانيـة فأرفعه... وما زلنا كذلك حتى ملَّ تلك الحركة عقـرب الـساعة، فـشعرت بتوقفه.

بدأت أعد الوقت بنفسي، عدد الزفرات مرت ثوانٍ قاتلٌ مرورهـا، كأنه خيطُ (مـصيص) يحـزّ رقـبتي وأنـا لم أصـل بعـدُ لتحديـد التـاريخ.. توقفت الرواية هناك ولم أستطع الإكمال.

ومرة أخرى.. ضغطت يداي على كرة العظـم الملبّـسة بالجلـد الـذي وهى من شدة قسوتي وألم الدعك!

هناك فقط توقف نبض التفكير وكدت أخلد للاستسلام.

على الرغم من خيانة الذاكرة – كعهدي بها – لم أستسلم للألم ولا للظرف المحيط على قسوته، بل طرحت أشكال الاستسلام جانبا، خاصة بعد شعوري بقطرات الأملَ التي تسللت عبر النافذتين في جانبي وجهي لتدلف إلى خلاياي المبعثرة.

لم أجرؤ بتاتا أن أسأل عن التاريخ واليوم ثانية، فإن أنا سألت سأعود للحالة إياها، وقد قطعت عهدا ألا أعود إليها، إلا إن حصلت على بعض ما أحتاج لترتيب أوراقي.

كان يوما عصيبا، ذلك اليوم الذي فتشت فيه عن قلبي ولم أجده.. هل فقدته.. يبدو أن الجواب نعم.. لماذا / كيف / أين / ومتى / لست أدري.. لكنني فقدته.. فعلا، فقد حاولت جلبه ذات يومٍ ولم أجده في مكانه بين الضلوع.

الأحداث العصيبة تتكرر، تزداد قسوة وعقوقا.. «ربما آن أن تنتهي» تمتمتُ حين قفز الأمل إلى أحشائي – ليس فجأة – ليضيئها ولو قليلا، ثم لأدخل وراءه باحثة عن قلبي.. وحينما دخلت.. صُدمت! لقد تركت الشيء الكثير هنا.. إنه محترق! رباه.. ما هذه المحنة، هل يريد

القلب أن يتغير، أم أنه ذهب لغير رجعة، وترك الألم يعبث لاهيا بما أخبئ بأحشائي؟

ألم أكن ذات يوم واعدته على الوفاء وعاهدني حفظ ما أأتمنه عليه؟

كانت صدمة لم أحتمل ألمها، كانت قاسية جداً، على الرغم من أنني اعتدت على غدر الجميع!

اليوم.. (قلبي) هو الذي اختفى، خبا، ابتعد، وأظنهُ غدَر!! لا أعرف الحقيقة!

وأخيراً.. اتخذت قراري، قبل أن يسرقني حدث جديد!

انتظرت الليل حتى يسدل ستره الأسود، لأستقيل من منصبي الذي مللت الإقامة فيه، وأنفذ الأمر الذي عزمتُ عليه. لأتخلص من هذه المهزلة، وأنهي المعاناة التي أخوضها وحدي دون قلب! حتى كأن لم يكتب لها حدّ.

ها قد حلّ الليل، وبدأ يتغلغل السواد في طبقات الجوّ، كان أجمل من كل الأشياء.. لمحتهُ، كدتُ أطير إليه.. تماسكتُ لكنهُ أحزنني فقد كان شاردا. ولما تجمّع الكل حول مأدبتي، تذكرت محمد الملك[14] كأنني

---

[14] بطل قصةٍ طالما أغرتني بها "منيرة" رفيقة طفولتي والشغب/ كان فيها كل الكون يجتمع ويستمع لمحمد الملك، بمجرد أن ينوي قولَ شيءٍ؛ أياً كان.

عدت لأكون الأميرة في عالمي، تربعت على طرف المقعد وبدأتُ أسردُ القصة، أخبروني أنهم يعلمون جيدا تفاصيل الحكاية.

الجوى الملتاع، والروح الهائمة، والحواس الملتهبة.. الكل كان حاضرا إلا القلب الـ... كان غائبا، فشرحَ مغيبهُ الوجعَ بالتفصيل!

حاولوا كفكفة حزني وقرروا: «لا بد أن نتخلص منه، ننفيه إلى المجهول، فلا حاجة بنا لقلبٍ ميت».

هامش

لم تكن الولادة الأولى تعني لي الكثير

على الرغم من أنها عنته فعلا لهم

غيرَ أن في هذه لذة لا أستطيع أن أنكرها!

الجمعة || 21 ديسمبر 2007م

فضاء الأمنيات

يوما ما وبينما هي في مركبة تقلُّ جسدها المنهكَ بعدَ نهارٍ طويلٍ من العمل، ترخي رأسها على النافذة، تاركة مجالا أوسعَ لتلكَ المحمومة التي تمدُّ أشعتها إليها من زجاج العربة، خيوطا مستقيمة متراصة بجوارِ بعضها البعض، ومتفرقة بعضَ الأحيان، ترتدي ثوبَ العطاءِ الساخن، لا يحيلها الزجاجُ عن المرورِ إلى أفكارها، والامتزاجِ بها.

تلقي نظرة خاطفة للبحرِ لتلسعَ انعكاسة خيوطِ الشمسِ طرفَ نظرتها التائهة إلى سطح الماء الذي يخفي بداخله الكثير، فتغمضُ عينها مباشرة وتلتفتَ حيث ظل مصنوع لكنه لا يلسع النظرات!

تشدها الفوضى البريئة التي أشعلها في العربة شجارٌ ذو نكهة مختلفة ورونقٍ ملوَّن.. صغيرة تشكو لبابا ما يفعله أخوها «بدلعٍ»، فيحركُ الأخيرُ يده ناحية الطفلِ الواقفِ خلفها يمنعه عن لمسِ براءة

الصغيرة.. لتتلوى في حضن والدها وربما تصوبُ نظرة انتصار ناحية أخيها المغلوب بعين طفولتها، وينتهي الشجار إلى لوحة براءة:

طفلة تتكومُ في حجرِ والدها كأنها دمية مصنوعة، وتهبُ أخاها يدا دافئة تغفو بقبضة يده الصغيرة، ليضمها إلى صدره، ويسلم ثقلَ رأسه إلى كتفِ والده.

الثلاثاء || 15 ديسمبر 2009م

كتابي أنا

في كلِّ لحظة يشاغلني قلبكَ، يلاحقني ظلك، يبادرني حبك، يدانيني عطرك، يناقشني انفراجا بين دفتي عمري لأتركَ لكَ مساحة تمرح فيها بكلك.

ألم يدرِ الوردُ، أو يلحظِ العطرُ أنكَ تسكنني، أنك تحتل مساحاتي بكلها!

سأؤلفُ بين يدي حضورك كتابا، لا يحملُ إلا اسمكَ، ولا يغدقُ إلا عطركَ.. كتابا لا يشبهُ أي كتابٍ.. ولا تشبهه الكتب!

أضمنه كلَّ ما أستطيع / كل ما أشعر / كل ما أودّ /كل ما أملك!

بين يدي عينيك أسترسلُ في تصفيف جمالياته أبحرُ وحدي في لملمة بقايا بقاياي لأصنع منها ما يليق بحبي لك.

أنصرفُ إلى كتابي هذا كلَّ ذاتِ شوق / كلَّ ذاتِ حبّ، ولن أنتظر

أن تأتي تانكَ اللحظتان، فلستُ أعيش دونهما.

أستنشقكَ أنفاسا وتتدفق أنتَ فيَّ مع دميْ!

سأصرفُ عمري في كتابة كتابي هذا، سأجعل العجزَ يعجزُ أمام مدّ مشاعري، سأخطّ سطوره بعرق لهفتي وحناني الدفاق، وسأواري – إن استطعت – خيبة أملي في احتضانك؛ في امتلاكك ولو للحظة!

ومن يدري!

ربما يخلدُ كتابي.. ربما يصلُ إليك.. فيحتلُّ رفوفَ حياتك ذات يوم، حتى إن كان بعد رحيلي!

أمرغُ حبي مسافرة إليه، وألملمُ حروفي النافرة بين يديه، فأكتبه بماء الودّ، وأشكّله بلون الورد.

أصنع له حروفا ناطقة، وأزخرفها بأنفاسٍ عاشقة!

في فصله الأول:

كل ما يحويه عمري من حكايا، أستمع إليها حين يلفظها قلبي.. وأنا.. لا أزال كطفلة تكابرُ خوفَ أن يهزمَ عينيها سلطان النومِ أسمعها لأنقشها فيه!

أنقشها بين حرفين لا أفهم من الأبجدية سواهما – أو أني أفهم الكثير – لكن.. لا يعنيني سوآهما!

وفي فصله الثاني:

أرى أنَّ لا شيء يمكن أن يكتبَ إلا خيبة لم أقوَ على مُداراتها فلستُ أملكُ بحالٍ أنِ أخفي اللذة الجميلة في تحرقي بين يدي انتظارِ قلبك، ففي حبك – البعيد – حتى الخيبة كانت جدّ لذيذة!

في فصليه الثالث والخامس:

سأفرِدُ كلَّ تفاصيل روحي.. أوزعها في فصلين تضفي الأناقة على باقي الفصول، أتركُ مساحة بينهما ليستوطنها القلبُ.

أسردُ لك في الفصل الثالثِ أعمقَ تفاصيل روحي وأكثرها إرهاقا، لتلتقي قلبي بعدها في الرابع فيصدقكَ الحبُّ ويغمركَ حنانا، وتعود لتفاصيل روحي المبهجة في الخامس، يحيطك الكثير ولن تشعرَ إلا بي حينها، ربما يكون الأوان قد فات، لكنك أخيراً، تكتشفني فلا تجدُ إلاي حولكَ.. رحبة / قريبة / وحانية / حبيبة!

وأما الفصلُ الرابع:

فلن أضع فيه إلا قلبي، قلبي وفراغاتٌ تئنُ في قلبٍ آخر.. قلبٌ طالما تمنيت أن يجاور قلبي! لأملأ فراغاته ويملأني فلا أشكو شيئاً!

وفي فصله السادس:

أختصرُ ضياعكَ، وأسرد أوجاعك، أفاجئك!

وأمررُ طرف أنملتي على نبضك، بل ألمسُ ضعفكَ، أفضح قواك الواهية، وأعذارك الباردة!

تفاجأ ولا تملكُ إلا أن تغلق الكتاب وترميه بعيدا!

آسفة أنا

لكنك لن تستطيع أن ترميه فإن التالي أكثرَ إغراءً!

وأما الفصلُ السابع:

سأترك عددا غيرَ محدودٍ من الأوراق الفارغات، لتكون بينها لأول

مرة صادقا مع نفسكَ، خاليا من هروبك الجائر، من رضاك المزوَّر!

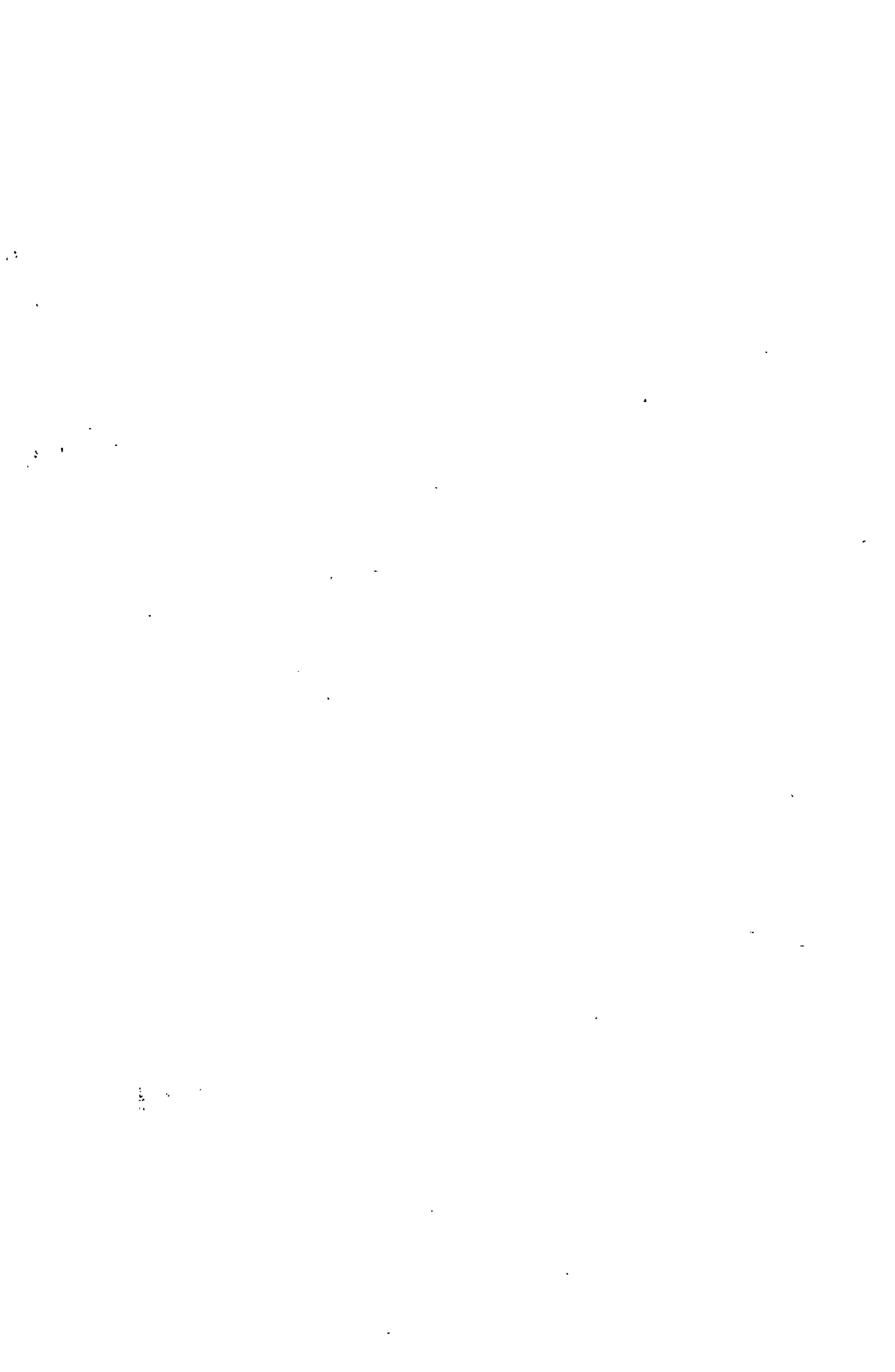
بعدَ أن أنهي فصولي، سأحتضنُ كتابي بعمقٍ وأرشق تنهيداتي، على مسامع العشاق أبداً، ودون أن أراجع سطرا، سأهرع إلى ملكوتي وأنثرهُ، فقد بدأتهُ هناك!

رسمتُ حتى دفة الكتابِ الأمامية، لوحة غلافهِ وضعتها، لكني أيضا.. تركته دون الدفة الخلفية، لقد تركتُ كلَّ النهاياتِ لكَ، لتكملها.. فتخطَّ ما تريد، كيفما تريد / أنى أردت، ومتى أردت.. تختم بأي ختام تريد.. وسأوافقك، إن كنتُ لم أزل بعدُ على قيد الحياة!

فأكمله

وإني أحبك،، فالتفت لي!

الجمعة || 21 مايو 2010م



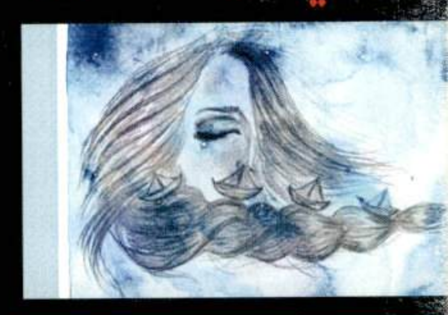
الفهرس

مساحات مفتوحة.. 11
عرسٌ.. من حروفٍ منتفضة.............................. 15
كم يشبهكِ البياض.. 19
سأحتفل في «لا» حضرتك................................ 23
أنثى استثنائية.. 29
منصبٌ في الظلّ.. 33
اختزال.. 37
قصاصة.. لم يعطبها الحنين.............................. 45
ياسمينة ترتقُ جرحا..................................... 51
خطايا الحروف.. 55
ثلاثون شيئاً.. 61
سمر الليالي.. 65

الخطيئة رقم واحد.. 69
أنثى الغرور.. 79
وافدٌ من جهنم.. 91
شيءٌ لا يموت... 97
أنوثة ذات أشواك.. 105
ثراء أخلاق... 111
أربع «أنّ» ـاتٍ في صباح راجف.............................. 119
جلال البؤس... 123
ذاتَ أرق.. 129
لا يزال الليل بارداً.. 133
إلا هيَ.. 139
إرهاصات ولادة قلب.. 141
فضاء الأمنيات.. 147
كتابي أنا... 149



في ثنية ضفيرة



سماح المزين

لا أنا صانعة الحبّ. ولا أتقنُ إلا استحضاره "سقاء للروح" لَما أكون أمامك.. فأملكُ حاسة الاكتمال البشري التي تمنحني إياها هيبة حضورك.

ولا أنت عابرٌ أضاف اسمهُ في قائمة. بل "متجذرٌ أزليٌ أبديٌ متفردٌ" تشغل أربعة أرباع القائمة. تتربع في مقدمتها والعنوان. وتتمددُ عبر حشوها وحدك. وتغلقُ الأبد في نهايتها والتذييل. وتغلفها أنت.

فيا سرّي العظيم :

لا الحديث ينتهي. ولا قصتي لها ختام..



مع ازدياد كم الأعمال التي يبدعها الشباب -خاصة بعد ثورة يناير العظيمة- وفي ظل الظروف الحالية التي تمر بها مصر. أصبح سوق النشر والتوزيع في حالة ضعيفة. خاصة مع استمرار ازدياد أسعار الخامات. وإحجام كثير من دور النشر على ممارسة نشاطها بتوسع. وضعف القدرة الشرائية للقارئ المصري. كذلك صارت عملية النشر محفوفة بالمخاطر. التي تخيف طرفيها - الناشر والقارئ - على حد سواء..

وكانت الدار نفسها من الدور التي تأثرت - وبشدة - اقتصاديا. ومع اضطرارها لإغلاق باب تقديم الأعمال هذا العام. فكرنا في حل بديل. هو النشر لمن يستحق.. وتطورت الفكرة كثيرا. إيمانا من دار ليلى (كيان كورب) بأهمية الحركة الثقافية. وحرصا منها على استمرارها في دورها. وإيمانا منها - كما عهدتموها- بالشباب الموهوب.. ليصبح بين أيديكم. هذا الكتاب.

الناشــر

